فتاوى فضيلة الشيخ:
د. محمد بن إبراهيم دودح

إصدارات موقع (الإسلام اليوم)
البريد الإلكتروني:**fatawa@islamtoday.net**
ص.ب ٢٨٥٧٧ الرياض ١١٤٤٧
هاتف: ٢٠٨١٩٢٠ فاكس: ٢٠٨١٩٠٢
المكتب العلمي بموقع (الإسلام اليوم)
طبعة خاصة – صفر ١٤٢٧هـ

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده أما بعد ..

فلقد حملت نافذة الفتاوى التابعة لموقع الإسلام اليوم على عاتقها الإجابة عن أسئلة الإخوة المسلمين، والتي تصل إليها بلهفة الظمآن من أصقاع الأرض، باحثة عن الهدى والنور، مستفتية طالبة معرفة الحق في العبادات والمعاملات اليومية مما يعرض للمسلم في حياته .

ولأجل تحقيق هذا الهدف الجليل فقد نشط القائمون على نافذة الفتاوى لاستكتاب جمع كبير من المشايخ الفضلاء من العلماء، والقضاة، وأساتذة الجامعات في شتى التخصصات الشرعية؛ طلباً للتعاون على البرّ والتقوى من إفتاء وتعليم للناس الخير عبر هذا المجال الإعلامي المتسارع .

وكان ممّن عرضنا عليهم التعاون في ذلك فضيلة الشيخ الدكتور مُحَمَّد بن إبراهيم دودح –حفظه الله– فتقبّل الدعوة بقبول حسن، ووجدناه سمحاً بذاك مجيباً، ولقد توالت أجوبته المبسوطة المطوّلة المحرّرة على الأسئلة المحالة إليه، واجتمع لدينا منها ثروة ثمينة، جديرة بالحفظ والعناية، ولتعميم العناية بها فقد جمعنا في هذه الضميمة عدداً من إجاباته، وهناك غيرها سيجمع مع غيره –إن شاء الله تعالى– .

وسيرى من طالعه مقدار ما تميّز به جهد الشيخ من تحرير، وتحبير، وحسن عرض، ورسوخ في العلم، ومقدار ما كان يوليه –حفظه الله– لأسئلة السائلين من اهتمام وعناية فائقة .

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن ينشر بركته، وأن يثيب فضيلة الشيخ مُحَمَّد دودح، ويبارك في علمه وعمره، وينسأ في أجله، وينفعه وينفع به، وصلى الله وسلم على نبيّنا وعلى آله وصحبه. والحمد لله رب العالمين.

يخرج من بين الصلب والترائب

السؤال (١٠٣٣٥): من المعروف أن تلقيح الحيوان المنوي للبويضة ينتج عنه الزيجوت الذي ينمو ليكون الجنين، وتنتج الحيوانات المنوية في الخصيتين خارج الجسم، والبويضة من مبايض الأنثى الواقعين على جانبي الرحم قال تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" [الطارق: ٥-٧]، إذاً الماء الدافق هو المني، الترائب: عظام صدر المرأة كما يلي الترقوتين، والصلب: فقار الظهر ألم يعلم أنه لا علاقة للحيوانات المنوية بالظهر؟ ولا البويضة بصدر المرأة؟ هذا السؤال طرح للتشكيك في معجزة القرآن الكريم، ونسبته إلى رب الجلالة – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا –؛ فأرجو من العلماء الأجلاء الرد في أسرع وقت ممكن لدحض هذه الشبهة التي ينشرها و يتشدق بها النصارى على موقع في الإنترنت، و لي رجاء من قارئ هذا السؤال أن يطلب من العلماء أصحاب الفتوى في هذا المنتدى والذين نثق بعلمهم أن يقوموا بجمع الشبهات المثارة على الإنترنت والإجابة عليها في كتاب أو في هذا المنتدى ليكون المسلم بعيداً عن أي تشكيك.

الجواب:

في قوله تعالى: "فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مّآءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ. إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ. فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ" [الطارق ٥-١٠]؛ الماء الدافق: تعبير وصفي للمني لأنه سائل تركيبه

يماثل قطيرات الماء إلا أنه حي تتدفق تكويناته وتتحرك بنشاط ويصدق عليها الوصف بصيغة اسم الفاعل (دافق) لدلالته على الحركة الذاتية، وجميع الأوصاف عدا وصف الماء بالدافق تتعلق بالإنسان؛ لأن بدء خلقه هو محور الحديث والموضوع الرئيس وهو المستدل به على إمكان الإرجاع حيًّا، وضمير (له) في قوله تعالى "فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ" لا يستقيم عوده إلى الماء وإنما إلى الإنسان، وضمير (رجعه) في قوله تعالى: "إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ" الأظهر عوده إلى الإنسان والإرجاع هو إعادة الخلق للحساب بقرينة وقت الإرجاع "يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ"، ولا توجد ضرورة لتشتيت مرجع الضمائر في "فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ" و"خُلِقَ مِن مّآءٍ" و (رجعه) في "إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِر" و"فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ" ولذا الأولى عود ضمير (يخرج) في "يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ" إلى الإنسان كذلك مثلها، خاصة أن المني لا يخرج بذاته كذلك وإنما من الخصية، والوصف بالإخراج آية مستقلة كبيان متصل بأصل الحديث عن الإنسان، وبيان القدرة المبدعة وسبق التقدير وإمكان الإعادة أظهر في إخراج الذرية من ظهور الأسلاف، والتلازم قائم بين (إخراج) الإنسان للدنيا وليداً و(إرجاعه) حيًّا بينما لا تلازم بين (إخراج) المني و(إرجاع) الإنسان، وخروج ذرية الإنسان من الظهر مُبَيَّن في قوله: "وَإِذْ أَخَذَ رَبّكَ مِن بَنِيَ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرّيّتَهُمْ" [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: "أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ" [النساء: ٢٣]، ولم يرد في القرآن فعل (الإخراج) متعلقاً بالمني بينما ورد كثيرا متعلقا بالإنسان لبيان خروجه للدنيا وليداً وخروجه حيًّا

للحساب، وللوجدان أن يقشعر من تلك الدقة المتناهية التي ميزت بين موضع تكون أعضاء إنتاج الذرية في الظهر وموضع خروجها على طريق هجرتها!.

(الصورة لم تظهر) قطاع عرضي يبين نشأة الغدة التناسلية في المنطقة الظهرية للجنين (الأسبوع ٥-٦)

وهجرة أصولها الخلوية بين بدايات العمود الفقري والضلوع قبل انفصالها وتميزها.

والحقيقة العلمية هي أن الأصول الخلوية للخصية في الذكر أو المبيض في الأنثى تجتمع في ظهر الأبوين خلال نشأتهما الجنينية ثم تخرج من الظهر من منطقة بين بدايات العمود الفقري وبدايات الضلوع ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب الرحم وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل وإلا فشلت في إنتاج الحيوانات المنوية وتصبح معرضة للتحول إلى ورم سرطاني إذا لم تُكمل رحلتها، والتعبير "يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ" يفي بوصف تاريخ نشأة الذرية ويستوعب كافة الأحداث الدالة على سبق التقدير والاقتدار والإتقان والإحكام في الخلق منذ تكوين البدايات في الأصلاب وهجرتها خلف أحشاء البطن ابتداءً من المنطقة بين الصلب والترائب إلى المستقر، وحتى يولد الأبوان ويبلغان ويتزاوجان وتخلق الذرية مما يماثل نطفة ماء في التركيب عديمة البشرية من المني لكنها حية تتدفق ذاتياً لتندمج مع نطفة نظير فتتكون النطفة الأمشاج من الجنسين، ويستمر فعل الإخراج ساري المفعول ليحكي قصة جيل آخر لجنين يتخلق ليخرج للدنيا وليداً وينمو فيغفل عن قدرة مبدعه، وكل هذا الإتقان المتجدد في الخلق ليشمل تاريخ كل إنسان قد عبر عنه العليم الحكيم

بلفظة واحدة تستوعب دلالاتها كل الأحداث: "يَخْرُجُ"، فأي اقتدار وتمكن في الخلق والتعبير!، ومع كل تلك المشاهد المتجددة والتقديرات المبدعة والقدرة المفزعة هل يرد مجرد هاجس على الخاطر: أنبعثُ حقاً ونُحَاسَب!.

وهكذا يتصل العرض وينقلك في ومضة من مشاهد بدايات مقدرة تسبق وجود الإنسان إلى حيث يقف عاجزاً معرّى السريرة ليواجه مصيره وحده بلا أعوان فيتجلى بتلك النقلة الكبيرة الفارق في أحواله، وسرعة النقلة تؤكد التقدير وسبق التهيئة وتجلي قدرة الله تعالى وحكيم تدبيره مؤيدةً "إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ"، قال الكلبي: "الضمير في إنه لله تعالى وفي رجعه للإنسان"، وقال المراغي: "فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ " أي فلينظر بعقله وليتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه وأنه.. على إعادته أقدر.. "خُلِقَ مِن مّآءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ".. حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرنًا، بيان هذا أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هي عظام صدره.. وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب.. فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع.. فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني وفي ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول ذلك

الكتاب، هذا وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف؛ فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم، وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصفن فتحتاج إلى عملية جراحية.. وإذا هُدي الفكرُ إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان سهل أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث في اليوم الآخر.. "إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِر" أي أن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء.. قادر أن يرده حيًّا بعد أن يموت".

واقتدار الخالق شاخص في كل العرض بينما يتملى الخيال مشاهد أعرضت عن الإنسان فعبرت عنه بالغائب في ومضات تُعَرِّيه من الخيلاء وتفاجئه بأصله ومصيره طاويةً حياته ومماته وكأنه لم يكن، في مقابل مشهد استكباره في تبجح صارخ يعلنه الاحتجاج المستهل بحرف (الفاء) ليفصح بأصل دلالته على التعقيب عن محذوف يكشف ما يجول في طوية نفسه: "فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ"، كأنه صيحة مدوية مؤنبة تقول: ألم تحدثك نفسك؟، وليس للإنسان في تلك المحاكمة إلا حضوراً باهتاً داخل قفص الاتهام في زاوية من المخيلة بينما تشخص عياناً أدلة التجريم؛ وكأنه تعالى يقول: "أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىَ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىَ" [القيامة ٤٠]، وهذا المشهد الأصغر لتعري السرائر مثال لمشهد يوم عظيم "يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ"، فتأمل الاتساق في عرض المشاهد، تصوير عجيب يكشف ما قبل فتح الستار وحتى بعد ضمه تبقى في الخاطر شتى صور العقاب وتؤز في المسامع نيران تتشوق لمن يشك لحظة في قدرة

الخالق سبحانه!، أسلوب مذهل جامع فريد لا يبلغه اليوم أي كتاب ينسب للوحي قد بلغ الذروة في التصوير وثراء المعنى مع الغاية في إيجاز اللفظ، وأما التفاصيل العلمية التي يستحيل أن يدركها بشر زمن التنزيل فهي بعض دلائل النبوة الخاتمة التي تسطع اليوم أمام الناهين.

من الإعجاز العلمي: البعوضة وما فوقها

السؤال (٢٤١٥٦): بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. أما بعد..فضيلة الشيخ يتناقل الشباب هذه الأيام رسالة عبر البريد الإلكتروني تتحدث عن إعجاز الله في خلقه للبعوضة، وكان مما ذكر قولهم: إن هناك حشرة تعيش فوق ظهر تلك البعوضة، وعليه فإنهم في الرسالة فسَّروا قول الله تعالى "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" [البقرة: ٢٦]. على أن المقصود بالآية هو تلك الحشرة الصغيرة.فضيلة الشيخ لو صدق النقل فهل الآية يمكن أن تُفسَّر بما ذكر أعلاه؟ بارك الله فيكم.

الجواب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

فهذا جواب مختصر لما سألتموني عنه حول اكتشاف علمي لكائنات حية تفوق البعوضة في الضآلة والخطورة: قال الله تعالى: "إِنّ اللّهَ لاَ يستحيي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمّا الّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنّهُ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَـَذَا مَثَلاً يُضِلّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلّ بِهِ إِلاّ الْفَاسِقِينَ" [البقرة: ٢٦]، وذلك في معرض الحديث عن القرآن الكريم، والذي يؤكد فيه "أَنّهُ الْحَقّ" من عند الله ويتوعد الكافرين بتلك الحقيقة، ويبشّر المؤمنين ويتحدَّى أن يأتي أحد بمثله، واستهل الحديث بقوله تعالى: "وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مّمّا نَزّلْنَا عَلَىَ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مّن مّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة: ٢٣]، وهذا يعني أن ضرب المثل بالبعوضة هو من جملة المتحدى به مما يحمل علما لا يدرك أغواره أحد زمن تنزيله، وأنها ذات أثر خطير في حياة المخاطبين، خاصة أن التعبير "أَنّهُ الْحَقّ" قد ورد نفسه في الإعلان المتحدي بتضمن القرآن حقائق خفية عن العالم تكشفها الأيام بينة على أنه من عند الله العليم بالخلق؛ وهو قول الله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللّهِ ثُمّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلّ مِمّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ. سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الاَفَاقِ وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتّىَ يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. أَلاَ إِنّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مّن لّقَآءِ رَبّهِمْ أَلاَ إِنّهُ بِكُلّ شَيْءٍ مّحِيطٌ" [فصلت ٥٢-٥٤]، قال الطاهر بن عاشور: (كانت الآيات السابقة ثناء على هذا الكتاب المبين ووصف حال المهتدين بهديه، والناكبين عن صراطه وبيان إعجازه والتحدي به، ووجه ربطها بما تقدم.. إقامة الحجة على أحقية القرآن أنه معجز).

الدلالة العلمية: لم يكن أحد زمن نزول القرآن يدرك أسرار المخلوقات على النحو الذي كشفته اليوم – بعد جهود مضنية في المجالات العلمية المتنوعة – الثورة المحمومة لكشف المجهول، والتي بدأت بعد نزول القرآن بأكثر من عشرة قرون، وقد جاءت الكشوف العلمية مؤيدة لعناية القرآن بالبعوضة لأهميتها في حياة البشر رغم ضآلتها في عالم الأحياء، وهذا مثل صارخ لتسامي القرآن الكريم عن النظرة النسبية في الحكم على الأشياء وتنزهه عن التصورات المحصورة بزمن، فلا تخرج في تعريفها للأشياء عما هو سائد فيه، وفي بيئة التنزيل لم يعرف عن البعوضة سوى أنها غير ذات شأن؛ من جملة ما يستحيي من ذكره في المسائل العظام، ولا يجب أن تلقى أي عناية أو اهتمام، وبلغت اعتبارها المثل في الضآلة والاستحقار، لأن في منظورهم: (ليس شيء.. أصغر من البعوضة)، وأنها: (نهاية في القلة والضعف)، فماذا قرر القرآن الكريم؟: دفع الاستحقار بالبعوضة في منظور الحقيقة؛ فكشف العلم بأنها ذات خطورة على المخاطبين وإن لم يدركوها، وأنها ليست نهاية في الضآلة كما يتصورون، بل هناك ما هو "فَوْقَهَا" في الضآلة ويفوقها في الخطورة، وذلك قبل أن تكتشف الأمراض الخطيرة التي تسببها البعوضة وعوالم الكائنات الحية الأدق وغير المرئية، ولم يكتشف المجهر ويستخدم لمعاينة الكائنات الدقيقة إلا في القرن السابع عشر الميلادي، وهكذا تجاوز القرآن الأفق الأعلى لمعارف المخاطبين لعدة قرون، ورفع أستار المجهول جملة واحدة. وفي نفي الاستحياء بالبعوضة دفع للاستهانة وبيان للأهمية والخطورة والتمكين بقدرات تتحدى المخاطبين، و(الفوقية) في اللغة العلو والزيادة في صفة يبينها السياق سيقت من أجلها

المقارنة، قال الفخر الرازي: (أراد بما فوقها في الصغر أي بما هو أصغر منها، والمحققون مالوا إلى هذا القول؛ لأن: الغرض هاهنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير، وفي مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانياً أشد حقارة من الأول.. والشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب، فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله تعالى، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالشيء الكبير.. وإذا قيل هذا فوق ذلك في الصغر وجب أن يكون أكثر صغراً منه)، وقال الماوردي: (فما فوقها) في الصغر لأن الغرض المقصود هو الصغر. وقال الألوسي: (والزيادة في المعنى الذي وقع التمثيل فيه هو الصغر والحقارة، فهو تنزل من الحقير للأحقر.. (خاصة أن الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يشير إليه ما قبلها). وقال الطاهر بن عاشور: (ولفظ (فوق) يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة.. ولذلك كان لاختياره في هذه الآية – دون لفظ (أقل) ودون لفظ (أقوى) مثلاً – موقع من بليغ الإعجاز، والفاء عاطفة ما فوقها على بعوضة أفادت تشريكهما في ضرب المثل بهما.. (أي في الحكم مع بيان التدرج في الرتب)، وقال السعدي: (المعنى الذي ضربت فيه مثلاً هو القلة والحقارة.. ولا يقال كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟، لأن التعقيب على الآية : {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم}، وهذا يجعلهم : يتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم وإلا علموا أنها حق وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً بل

لحكمة بالغة)، ويقرر صاحب تفسير مراح لبيد أن نبأ ما دون البعوضة: (لا يسوغ إنكاره لأنه ليس عبثاً بل هو مشتمل على أسرار)، وهكذا يشير القرآن الكريم إلى ما دون البعوضة من كائنات، ويدفع الاستهانة بها قبل اكتشاف الكائنات الحية المجهرية، وقدرتها على إصابة الإنسان وغيره من الكائنات الأكبر منها حجماً بالأمراض المهلكة. ولا يعدل القرآن في حديثه عن الحق، ولا يخالف في بيانه الواقع، فيعبر بالجمع عند الحديث عن "الذباب" و"الفراش" و"الجراد" لأن العلامات الموصوفة تشمل الذكر والأنثى، ولكنه يعدل في حديثه عن البعوض إلى اللفظ المفرد المؤنث "بعوضة"، والعجيب أن الأنثى هي بالفعل التي تتغذى على الدماء وتنقل الأمراض، أما الذكر فهو أكبر حجماً ويتغذى فقط على رحيق الأزهار، وهكذا ناسب الاشتقاق أن البعوضة هي الأقل حجماً والأخطر شأناً. فهذه إضافات علمية، إذ إن المعرفة بالبعوضة والأحياء الدقيقة دونها ودورها في نقل الأمراض يستحيل أن يدركها أحد قبل اكتشاف المجهر، فلم يعرف دور البعوضة في نقل طفيل الملاريا مثلا إلا قبيل بداية القرن العشرين، فقد تمكَّن (الفونس لافيران) من معرفة الطفيل المسبب للملاريا عام ١٨٨٠، وفي عام ١٨٩٧ اكتشف (سير رونالدز روز) انتقال الطفيل عن طريق البعوضة، وفي عام ١٨٩٨ تمكَّن فريق من الباحثين من تأكيد دور البعوضة في نقل المرض، وقبيل بداية القرن العشرين كانت هناك عدة فرضيات تحاول تفسير سبب وباء الحمى الصفراء، وفي عام ١٨٨١ افترض كارلوس فينلاي أن الناقل هو البعوض، وهو ما أكده ميجور والتر عام ١٩٠٠ وأثبته ويليام جورجاس في القرن العشرين، وبالتخلص منه أثناء شق

قناة بنما تراجع المرض، وفي نفس الفترة اكتشف باتريك مانسون طفيل الفلاريا الذي يسبب داء الفيل، وعرف أن الناقل له هو البعوض كما ينقل طفيل الملاريا، وكلمة "ملاريا" إيطالية الأصل وتعني الهواء الفاسد، وقد بقيت مستخدمة حاليا كمصطلح تاريخي يعكس الاعتقاد الخاطئ بأن المرض ينتقل للإنسان عن طريق الهواء الفاسد، وذلك قبل أن يُعرف دور البعوضة في نقل الطفيليات المجهرية التي تسببه. والبعوضة mosquito في الاصطلاح العلمي حشرة ضئيلة من ثنائيات الأجنحة، وفم الذكر ماص وليس له أية أجزاء ثاقبة ليمص الدماء، ولكن الأنثى وحدها فمها مصمم على ثقب جلد الإنسان والحيوانان ذات الدماء الحارة، لتتغذى عليها باعتبارها مصدر غني بالبروتين اللازم لإنتاج البيض، وتفرز الأنثى على الجرح سوائل من غدتها اللعابية تؤدي إلى الاحتقان، وتمنع تجلط الدم فتجعله ينساب بسهولة إلى فمها، وإذا كانت حاملة لكائنات دقيقة تسبب الأمراض انتقلت إليها من لسعة سابقة لإنسان أو حيوان مصاب، فمن الممكن أن تنقلها مع سوائل الغدة اللعابية وتنشر الأمراض في محيط واسع، ولذا ليست خطورتها في مجرد طنينها المزعج، أو لسعاتها التي قد تكون مؤلمة ومسببة للحكة والاحتقان، وإنما فيما تنقل من كائنات تسبب الأمراض الوبائية الخطيرة، والتي منها طفيل الملاريا Plasmodium وطفيل الفلاريا الذي يسبب داء الفيل Elephantiasis، وعدد من الفيروسات مثل فيروس مرض الحمى الصفراء Yellow fever والحمى المخية Encephalitis ومرض أبو الركب Dengue fever والحمى النازفة Hemorrhagic fever وحمى

الوادي المتصدع Rift Valley fever ، ويمتد خطرها إلى عديد من الطيور والثدييات كذلك، ومن تلك الأمراض مرض دودة القلب Heartworm disease الذي يصيب الكلاب خاصة ونادراً ما يصيب الإنسان، وهو ناتج عن الإصابة بنوع من طفيليات الفلاريا. وتتكون حشرة البعوض من رأس وصدر وبطن كما هي بقية الحشرات، ولها ثلاثة أزواج من الأرجل الطويلة النحيلة، ولها زوج من الأجنحة وعضوين بجوارهما في موضع زوج آخر ضامر من الأجنحة يستخدمان كأعضاء توازن، وتوجد قشور عديدة على أوردة الجناحين تزيد من قدرة الجناح على الطيران، وتبيض الحشرة الكاملة ١٠٠ – ٤٠٠ بيضة تفرز منها آليات التوازن البيئي أعداداً قليلة تستطيع إكمال دورة الحياة، وبلوغ طور النضوج في مدة قد تبلغ ٧ – ١٠ أيام في بعض الأنواع، ويمكنك توقُّع توالد البعوض في حدود أسبوعين من وضع البيض عندما يتوفر الماء؛ لأنه ضروري لفقس البيض وحياة اليرقات والعذارى، ويمكن للبيضة الكمون لفترات طويلة في انتظار الماء. وقد تفقس البيضة بعد (واحد – ثلاثة أيام) من وضعها لتتحول إلى يرقة Larva وتمكث بدورها خمسة أيام – عدة أسابيع قبل أن تتحول إلى عذراء Pupa، واليرقات أو الدعاميص نشطة الحركة، ولذا تسمى بالهزازات Wigglers، وتأكل بشراهة وتتغذى على الطحالب والمواد العضوية في الماء، وهي من النهم والشراسة، بحيث إنها قد تتغذى على يرقات أمثالها، وتتنفس اليرقات عن طريق أنبوب ذيلي وكذلك العذراء، وعند إثارتها تأتي بحركة لولبية ولذا تسمى بالبهلوان أو الشقلباظ Tumblers، وتمكث ٢–٣ يوم قبل أن تخرج من

غلافها الحشرة الكاملة وتتهيأ بعد مدة قليلة للتزاوج. وتبلغ أنواع الحشرات ٣ – ٤ مليون على الكوكب، يوجد منها أكثر من ٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ نوع من البعوض ينتشر في بيئات مناخية مختلفة ليبلغ كل منطقة يعمرها الإنسان ويمتد من المناطق الاستوائية حتى الدائرة القطبية، ومن الأودية إلى رؤوس الجبال.

والبعوض ثلاثة أنواع رئيسة مهمة وهي:

أولاً: بعوض الأنوفيليس Anopheles : ينقل طفيل الملاريا وطفيل الفلاريا وفيروس الحمى المخية، وتقف الحشرة وجسمها مائل على السطح ورأسها للأسفل، وتضع الأنثى البيض فرادى على سطح الماء، وجسم اليرقات مغمور في الماء في وضع أفقي يوازي سطح الماء، وتتم دورة الحياة في حوالي ١٨ يوما، وقد تمتد إلى عدة أسابيع.

ثانيا: بعوض الكيولكس Culex : ينقل طفيل الفلاريا وفيروس الحمى الدماغية، وتقف الحشرة موازية للسطح، ويلتصق البيض في مجموعات كل منها قد يزيد عن ١٠٠ بيضة، وتميل اليرقات بزاوية على سطح الماء، وتتم دورة الحياة في ١٠ – ١٤ يوما.

ثالثاً: بعوض الإيديز Aedes : ينقل فيروسات الحمى الصفراء وحمى (أبو الركب) والحمى الدماغية، فالحشرة موازية للسطح وتميل اليرقات بزاوية على سطح الماء مثل الكيولكس، لكنه يتميز عنه بخصائص منها أن الحشرة عليها قشور فضية، ويستطيع البيض الصمود لفترات طويلة من الجفاف، وقد تتم دورة الحياة في عشرة أيام فقط، وقد تطول إلى عدة أشهر إذا لم يتوفر ماء، وتوفر الماء ضروري لفقس البيض وحياة اليرقات والعذارى، والبرك والمستنقعات

والمزارع المفتوحة من أنسب مواضع التكاثر، ويمكن لبعض الأنواع استخدام المياه المالحة أو الماء الجاري، ويكفي في بعضها القليل مثل بقايا مياه المطر المتجمعة في ثقوب الأشجار، بل ربما رحيق زهرة إذا تعذر البديل، ويتكاثر البعوض عادة بالقرب من مصادر الماء، ولكن بعض الأنواع ينتقل لمسافات بعيدة عن مكان التوالد، ولذا لا تنجح كثيرا الوسائل الفردية للتخلص من البعوض، ويحتاج الأمر لجهود قومية لتخفيض نسبة التكاثر، ويتفق التوزيع الجغرافي لأكثر المناطق إصابة بالأمراض التي يسببها البعوض، مع التوزيع الجغرافي للمناطق الحارة، وفي فصل الشتاء قد تكون البعوضة كامنة في بعض الأنواع في انتظار فصل الربيع، أو قد تكون في طور البيضة في انتظار توفر الماء، وبانتهاء مواسم تكاثر البعوض تقل نسبة الأمراض وتتلاشى نوبات الوباء، ومن وسائل الحماية الشخصية عند تفشي المرض استخدام المواد الصناعية الطاردة أو الطبيعية، كمستخلصات نبات النيم لما فيها من مواد مؤثرة كالسالانين Salannin أو استخدام الشبكات الواقية (الناموسيات)، وللحد من تكرر النوبات في المناطق المعرضة ينبغي اتخاذ احتياطات وقائية عديدة، منها ردم البرك والمستنقعات أو تربية الأسماك التي تتغذى على أطوار البعوض في الماء مثل أسماك الجامبوزيا Gambosia وجابي Guppy.

ويستخدم البعوض قرونه كأدوات للاستشعار، ومن الجائز أن تكون كذلك أعضاء للذوق والشم واستشعار الحركة، والشعيرات الأكثر كثافة التي تغطي قرني الاستشعار عند الذكر تزيد من كفاءته وقدرته على تمييز أنثى نوعه، وقد تجمع من الأدلة ما يكفي للقناعة بأن قرون الاستشعار عند البعوض في غاية

الحساسية والكفاءة كأدوات استقبال صوتي تماثل الآذان، خاصة مع اكتشاف انتفاخات عصبية في قواعد الشعيرات تجعلها تستجيب وتتحرك تجاه أصوات ترددها يماثل تردد طنين أجنحة الأنثى من نفس النوع، وعلى سبيل المثال تميز الذبذبة ٣٨٤ هرتز (دورة/ثانية) بعوض الحمى الصفراء، وتكون تلك الذبذبات على أشدها عندما يكون قرن الاستشعار موجها نحو مصدر الصوت، وبهذا يمكن للحشرة بكل بساطة ودقة تحديد اتجاه الصوت أو الحركة الخفيفة خاصة مع وجود قرنين. ويختلف معدل خفقات الأجنحة في الحشرات المختلفة، فيتدنى ليبلغ ٨ خفقات في الثانية في بعض الفراشات، ويرتفع إلى ما يزيد عن ١٠٠٠ خفقة في الثانية في بعض الحشرات، والبعوض من الحشرات السريعة الخفقان، حيث يبلغ حوالي ٦٠٠ خفقة في الثانية، وخفقات أجنحة إناث البعوض هي التي تحدث الطنين المعهود، وقد أثبتت الأبحاث أنه يختلف من نوع لآخر فتستطيع الذكور بسهولة تمييز الإناث من نوعها، وبذلك تتواصل الأجيال في النوع ذاته، ومعدل اهتزاز الجناح في الأنثى يقل قليلا عن الذكر، وإذا أمكن تمييز هذه الذبذبات في منطقة ما يمكن معرفة الأنواع المتواجدة، بل من الممكن كذلك اجتذاب الذكور للمصائد والتخلص منها عن طريق أحداث همهمات صناعية تماثل ذبذبات أجنحة الإناث من نفس النوع المتواجد، ومحاكاة الطبيعة كتقنية للتخلص من البعوض يمكن توجيهها كذلك لاجتذاب الإناث عن طريق أجهزة خاصة (مغناطيس البعوض)، تطلق حرارة ومواداً تماثل ما تطلقه، الأجسام والتي منها ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء في هواء الزفير وحمض العرق Lactic acid وقد تستخدم المصابيح ليلاً، وإذا

نجحت تلك المحاولات في مناطق انتشار السكان ستكون كذلك أسلم كثيراً من المبيدات الحشرية كمادة د.د.ت DDT، خاصة أنها تقتل الطيور والحشرات المفيدة وتخرق التوازن البيئي، ومع الوقت تتولد ضدها مناعة عند البعوض فتصبح أقل قيمة في مقاومته. كائنات ضئيلة تتحدى البشر: قد تسبب لسعة البعوضة حكة موضعية نتيجة لاستدعاء الجسم لآليات التخلص من المواد التي تفرزها البعوضة أثناء الوخز، لكن خطرها الحقيقي يتمثل في نقل الكائنات الدقيقة المسببة للأمراض، فمن الممكن أن تنقل فيروسات قد تغزو الجهاز العصبي للإنسان وتسبب الالتهاب السحائي Meningitis أو المخي Encephalitis أو المخي الشوكي Encephalo-myelitis، والعائل الوسيط عادة يكون حيواناً أو طائراً قد تغذت البعوضة من دمائه الملوثة قبل مهاجمة الضحية الجديدة، والحمى المخية مرض خطير ومن علاماته تصلب الرقبة وصعوبة تمايلها للخلف، وظهور تشنجات وعدة أعراض عصبية أخرى، وتصل نسبة الوفيات إلى حوالي ٧٠%، وفي الحمى الصفراء يحطم الفيروس الخلايا الكبدية، ويؤدي إلى صفراء تصاحب الحمى ومن هنا كان الاسم، وحمى الوادي المتصدع ينقلها البعوض ويسببها فيروس يصيب المواشي، وقد يؤدي إلى نفوقها ومن الممكن أن يصيب الإنسان، وتبدأ الأعراض بحمى وحساسية من الضوء وآلام عضلية ووهن شديد وربما نزيف، وقد يؤدي للعمى إذا كتبت النجاة للمريض، والحمى المخية من مضاعفات المرض، ويمكن أن ينتقل للإنسان عن طريق التعامل مع اللحوم المصابة والمواد الإخراجية للحيوان المريض، وقد سجلت الحالات الأولى في كينيا في منطقة الوادي المتصدع ومن

هنا كان الاسم، ولكن الحالات المرضية سجلت أيضا في شرق وجنوب أفريقيا وأخيراً عام ٢٠٠٠ في بلدان آسيوية كاليمن والمملكة العربية السعودية، ومع ذلك بقي الاسم كمصطلح علمي على المرض، ومرض (أبو الركب) سببه فيروس ومن أعراضه حمى وطفح جلدي وألم شديد في المفاصل، ولذا يسمى حمى تكسير العظام Break-bone fever، ويتسبب في دخول حوالي ٠,٥ مليون سنويا إلى المستشفيات ووقوع آلاف الوفيات، وقد ظهر شكل للمرض أكثر عنفا بعد الحرب العالمية الثانية في جنوب شرق آسيا سمي "حمى الركب النازفة" أصاب الأطفال وأدى إلى وفيات عديدة، ويتميز بنزيف حاد من الفم والأنف وظمأ شديد وصعوبة في التنفس، وينتشر الآن في أمريكا الوسطى ويمتد شمالا نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وقد سجلت حالاته المرضية في أكثر من ١٠٠ دولة، ويظهر هذا المرض خاصة في مارس كل عام؛ نتيجة لتكاثر البعوض في الجو الحار صيفاً، ولا يتوفر لهذا المرض حتى الآن أي لقاح ولا يوجد له أي علاج ناجح، وداء الفيل عبارة عن تورم بعض مناطق الجسم خاصة مناطق القدمين والثديين وكيس الصفن؛ نتيجة انسداد الأوعية الليمفاوية بطفيل الفلاريا. ويتكاثر طفيل الملاريا داخل الكريات الدموية الحمراء، والسبب في النوبات هو الانفجار الجماعي لتلك الكريات المصابة دوريا كل يوم أو يومين أو ثلاثة تبعا لنوع الطفيل وإطلاق مواد غريبة مناعيا هي المسئولة عن دورية الأعراض الرئيسية : قشعريرة وارتفاع في درجة الحرارة، ثم عرق تتبعه فترة راحة بين النوبات، وتستمر نوبة الملاريا في العادة ٤ — ١٠ ساعات، وتبدأ بعد حوالي ٨ — ٢٥ يوما من التعرض للبعوض، والطفيل من

النوع فالسيبارم P.Falciparum يسبب الملاريا الخبيثة، وقد سميت الحالة كذلك لكونها تؤدي إلى موت حوالي ٩٥% من حالات الملاريا، وبعد تناقص عدد الإصابات نتيجة لاستخدام مستخرجات نباتية تماثل الكينين مثل الكلوروكين Chloroquine بدأت الشكوى مع نهاية القرن العشرين من قلة الفاعلية وزيادة عدد الإصابات من جديد؛ نتيجة تنامي أنواع من الطفيل ذات مناعة مما يحتم استخدام بدائل جديدة، ومن الممكن أن تنتقل الملاريا عن طريق استخدام شخص سليم لنفس الإبرة الطبية التي استخدمها شخص مصاب بدون تعقيمها، مثلما يحدث في حالات إدمان المخدرات باستخدام الإبر، وربما ينتقل المرض كذلك عن طريق نقل الدم، وطبقا لتصريحات منظمة الصحة العالمية مازالت الملاريا تصيب حوالي ٤٠٠ مليون ضحية سنويا على مستوى الكوكب، وتقتل حوالي ٢ مليون شخص معظمهم من الأطفال، ولا يوجد لقاح فعال ضدها حتى الآن. وينتقل مرض الإيدز H.I.V. أساسا عن طريق الفاحشة ولكنه يمكن أن يصيب شخصاً سليماً عن طريق نقل الدم من شخص مصاب، ومع اكتشاف المرض وانتشاره السريع اتهمت البعوضة في نقل الوباء، لكن فيروس الإيدز لا يستطيع العيش داخل البعوضة ولذا لا تستطيع أن تنقله من شخص لآخر، بينما يستطيع طفيل الملاريا العيش داخلها ٩ – ١٢ يوما وفيروس الحمى المخية ١٠ – ٢٥ يوما، والغالب أن فيروس الإيدز يُهضم في بطن البعوضة مع وجبة الدم في حدود ١ – ٢ يوما حيث لا تحتاج البعوضة خلال تلك الفترة إلى وجبة إضافية، والنقل عن طريق تلوث فم بعوضة لم يتهيأ لها إكمال وجبتها غير محتمل؛ لأن الأعداد الحرة

للفيروس في الدم قليلة لا تكفي عمليا للإصابة بهذه الكيفية، وبهذا أعفيت البعوضة من الاتهام وكفاها ما تسببه من أمراض.

عجز البشر أمام التحدي:

إن البعوضة من أخطر الآفات الحشرية Pests ومازالت تهدد البشرية، وإذا لم يمكن التخلص منها – على الأقل حتى الآن – فهل يمكن محاولة تغييرها وراثيا بحيث تصبح حشرات غير ضارة بالإنسان أو الحيوان وتكف عن تناول وجبات الدم؟، أو يتوقف نقل الأمراض عن طريقها؟، أو إحداث تغييرات وراثية في المادة الجينية للكائنات الوبائية التي تنقلها بحيث يتوقف إحداثها للأمراض؟، تعكس مثل تلك التساؤلات الجريئة التي يطرحها المختصون العجز حاليا أمام إمكانات البعوضة، وتحمل في طياتها آفاقا محتملة من التغير البيئي الذي قد يمتد ليشمل جميع الآفات على الكوكب، والذي لا يعلم اليوم مداه أحد إلا الله سبحانه وتعالى وحده. ولقد طالت هجمات البعوضة أكثر الدول تقنية، وعلى سبيل المثال قد انتشرت فجأة في أغسطس عام ١٩٩٥ في نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية بعوضة عدوانية لسعاتها مؤلمة تهاجم بشراسة حتى في وضح النهار، ولأن موطنها الأصلي هو آسيا ولعدوانيتها الشديدة وتخطيط جسمها تسمى بالنمر الآسيوي Asian tiger، وهي من نوع الإيديز Aedes albopictus، وقد ظهرت لأول مرة في الولايات المتحدة عام ١٩٨٥، فقد بدأت انتشارها بعد الحرب العالمية الثانية في هاواي ومناطق المحيط الهادئ، ولكنها أخيراً وجَّهت زحفها نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وتتكاثر تلك البعوضة سريعاً جداً؛ لأنها لا تحتاج لكميات ماء

كثيرة كي يفقس بيضها، وتكفيها أية بقايا متجمعة في أواني مهملة كالإطارات القديمة للسيارات أو بقايا مياه المطر المتجمعة في فجوات الأشجار، ولذا تصعب مقاومتها عملياً، وتستطيع أن تنقل فيروسات مرض (أبو الركب) والحمى المخية في الإنسان والحيوان. ومع خرق التوازن البيئي بتقلص مساحة الغابات والمناطق الزراعية وانطلاق أدخنة المصانع بكميات وفيرة من الغازات المؤثرة مثل ثاني أكسيد الكربون في الجو تزداد كمية حرارة الكوكب بنسبة ملحوظة نتيجة عدم قدرة الحرارة المنعكسة منه على الهروب، وهذا يسمى تأثير البيت الزجاجي؛ لأنه يماثل ما يحدث في بيت الزجاج المستخدم لإنتاج نباتات تحتاج لحرارة أكثر، ويتوقع أن يزداد المعدل الوسطي لحرارة الكوكب حوالي ١ – ٣,٥ درجة مئوية بحلول عام ٢١٠٠ ميلادية، ولذا يتوقع زيادة أعداد البعوض وارتفاع نسبة الأمراض التي يسببها، إذا لم يمكن اتخاذ إجراءات وقائية حاسمة على مستوى الكوكب، وتعاون الجنس البشري في مواجهته.

الاشتغال بالإعجاز العلمي في النصوص الشرعية

السؤال (٢٥٨٤٠): هل يوجد دليل على مشروعية الاشتغال بمسألة الإعجاز العلمي في القرآن أو السنة النبوية الصحيحة؟ وهل نجد مثالا في عهد (خير القرون) على ذلك؟ لأن الموضوع بين الذين يؤيدونه بشكل

مطلق والذين ينفونه بشكل مطلق أيضا ضاع عليهم الاحتكام إلى الشرع كما أمر بذلك العزيز الحكيم. وجزاكم الله خيراً .

الجواب:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

لقد ادخر القرآن الكريم كثيراً من الآيات للأجيال في عبارات معلومة الألفاظ، لكن الكيفيات والحقائق لا تتجلى إلا حيناً بعد حين، يقول –تعالى-: "إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين" [ص:٨٧ – ٨٨]، وقد فسر الطبري معنى الحين بقوله: (فلا قول فيه أصح من أن يطلق كما أطلقه الله من غير حصر ذلك على وقت دون وقت) انظر تفسير الطبري(٢١/٢٣)، فلكل نبأ في القرآن زمن يتحقق فيه، فإذا تجلى الحديث ماثلاً للعيان أشرقت المعاني وتطابقت دلالات الألفاظ والتراكيب مع الحقائق، وهكذا تتجدد معجزة القرآن على طول الزمان، يقول العلي القدير: "وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأٍ مستقر وسوف تعلمون" [الأنعام: ٦٦-٦٧]، ونقل ابن كثير عن ابن عباس – رضي الله عنهما- تفسيره للمستقر بقوله: "لكل نبأ حقيقة أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين"، وقد تردد هذا الوعد كثيراً في القرآن الكريم بأساليب متعددة كما في قوله –تعالى-: "ثم إن علينا بيانه" [القيامة: ١٩]، وقوله: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" [فصلت: ٥٣] وقوله: "وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها" [النمل: ٩٣]، قال ابن حجر: (ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه

للعادة في أسلوبه وفي بلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه) فتح الباري(٧/٩)، قال مُحَمَّد رشيد رضا: (ومن دلائل إعجاز القرآن أنه يبين الحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيرون في فهمها والاستفادة منها مجملة وإن كان فهم ما وراءها من التفصيل الذي يعلمه ولا يعلمونه يتوقف على ترقي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك)، وقال جوهري: (أما قولك كيف عميت هذه الحقائق على كثير من أسلافنا؟، فاعلم أن الله هو الذي قال: "سأريكم آياتي فلا تستعجلون"[الأنبياء: ٣٧]، وقال: "وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها"[النمل: ٩٣]، إن الله لا يخلق الأمور إلا في أوقاتها المناسبة وهذا الزمان هو أنسب الأزمنة،والمدار على الفهم، والفهم في كل زمان بحسبه، وهذا زمان انكشاف بعض الحقائق) تفسير الجواهر(٨/٣٠-١٠/٦٥)، وفي قوله – تعالى-: "سأريكم آياتي فلا تستعجلون" [الأنبياء: ٣٧]، قال ابن عاشور: (وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين) وهي كما قال الرازي: (أدلة التوحيد وصدق الرسول – ﷺ- ولذلك قال سبحانه: "فلا تستعجلون"، أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها، واستعجال المنكرين يعني كما قال جوهري: (استبعاد ما جاء في هذه الآيات من الأمور العلمية التي أوضحها علماء العصر الحاضر، فهم يستبعدونها طبعاً لأنهم لا يعقلونها فقال الله تعالى لا تستبعدوا أيها الناس: "سأريكم آياتي فلا تستعجلون"[الأنبياء: ٣٧]، فإذا لم تفهمها أمم سابقة، سيعرفها من بعدهم، فقد ادخرنا هذه الأمور لأمم ستأتي؛

لتكون لهم آية علمية على صدقك فتكون الآيات دائماً متجددة، قال الرافعي: (والكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون والمتكلمون، فإن كان ذلك قد وفى حاجة تلك الأزمنة، فهو لا يفي بحاجة هذا الزمان إذ هي داعية إلى قول أجمع وبيان أوسع، وبرهان أنصع في أسلوب أجذب للقلب وأخلب للب، وأصغى للأسماع، وأدنى إلى الإقناع) (إعجاز القرآن ص٢٠).

" يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ "

السؤال (٢٩٠٤٧): من المعروف أن تلقيح الحيوان المنوي للبويضة ينتج عنه الزيجوت الذي ينمو ليكون الجنين، وتنتج الحيوانات المنوية في الخصيتين خارج الجسم، والبويضة من مبايض الأنثى الواقعين على جانبي الرحم قال تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" [الطارق: ٥-٧]، إذاً الماء الدافق هو المني ترائب: صدر المرأة أو ما أسفل الترقوتين صلب: ظهرألم يعلم أنه لا علاقة للحيوانات المنوية بالظهر؟ ولا البويضة بصدر المرأة؟ هذا السؤال طرح للتشكيك في معجزة القرآن الكريم، ونسبته إلى رب الجلالة تعالى الله "عما يقولون علوا كبيرا"، فأرجو من العلماء الأجلاء الرد في أسرع وقت ممكن لدحض هذه الشبهة التي ينشرها و يتشدق بها النصارى على موقع في الإنترنت، و لي رجاء من قارئ هذا السؤال أن يطلب من العلماء أصحاب

الفتوى في هذا المنتدى والذين نثق بعلمهم أن يقوموا بجمع الشبهات المثارة على الإنترنت والإجابة عليها في كتاب أو في هذا المنتدى ليكون المسلم بعيدا عن أي تشكيك.

الجواب:

المعلوم طبياً أن خلق الإنسان يتم باتحاد حوين منوي واحد مع بويضة لتتكون: (النطفة الأمشاج)، وفق تعبير القرآن الكريم، أي ذات الأخلاط (الوراثية) من الزوجين من حيث التركيب، ونجد تلك الدلالة في قوله تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ"[الإنسان: من الآية٢]، وهو تعبير عجيب لأنه أرجع خلق الإنسان إلى "نطفة" أو ما يماثل قطرة ماء واحدة ووصفها بالجمع أمشاج ليبين دور كل من الزوجين ويكشف سر التركيب الداخلي للكائن الأول من أخلاط منهما تحمل تقدير كل الصفات البدنية، ولكن إذا تتبعنا مراحل التخلق نجد أن الحوين المنوي أسبق تكويناً وفاعلية من البويضة لأنه يحتاج إلى حوالي عشرة أسابيع ليصبح قادراً على الإخصاب، وتمتد فاعليته نحو ثلاثة أيام بينما تحتاج البويضة إلى حوالي أسبوعين ولا تتجاوز فاعليتها في عملية الإخصاب أكثر من يوم، ويستقيم هذا مع تأكيد القرآن الكريم في قوله تعالى: "خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ" [الطارق:٦]على إرجاع أصل الإنسان بنوعيه الذكر والأنثى إلى المني كما في قوله تعالى: "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى" [لنجم:٤٥-٤٦]، قال الشوكاني في قوله تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ" [الطارق:٥-٦]، الماء هو المني والدفق

الصب يقال دفقت الماء أي صببته، قال الزجاج من ماء ذي اندفاق( ) وقال الكلبي: (وسمي المني ماء دافقاً من الدفق بمعنى الدفع فقيل معناه مدفوق وصاحبه هو الدافق، قال سيبويه هو على النسب أي ذو دفق وقال ابن عطية يصح أن يكون الماء دافقاً لأن بعضه يدفع بعضا)، ووصف المني بأنه يعج بالحركة الذاتية لأجزائه يتفق مع المعرفة العلمية الحديثة بأن الحوين المنوي ذو قدرة على الحركة والدفق الذاتي بخلاف البويضة التي لا تمتلك أعضاء حركة وتظل قابعة يوم الإخصاب في انتظار وصوله، وبهذا يسجل القرآن الكريم معجزة كبرى بعدوله في التعبير إلى الفاعل، (دافق) بدلاً عن الوصف الذي يدركه الكل (مدفوق)، ولا حاجة بنا لتكلف صرف دلالة التعبير(دافق) عن ظاهره إلى (مدفوق) ليوافق مداركنا لأنه أنزل بعلم الله وعلمنا محدود.

وفي قوله تعالى:" "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ" [الطارق:٥-١٠]، يتصل العرض وينقلك في ومضة من مشاهد بدايات مقدرة تسبق وجود الإنسان إلى حيث يقف عاجزاً معرى السريرة ليواجه مصيره وحده بلا أعوان فيتجلى بتلك النقلة الكبيرة الفارق في أحواله، وسرعة النقلة تؤكد التقدير والقصد لسبق التهيئة قبل خلقه وتجلي قدرة الله تعالى ووحدة تدبيره مؤيدة: "إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ"، قال الكلبي: (الضمير في إنه لله تعالى وفي رجعه للإنسان)، وهكذا جعل القرآن (الإنسان) محور الحديث مما يرجح عودة الضمير إليه في قوله تعالى: " يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" نقل الكلبي عن ابن عطية قوله: (يحتمل أن يكون للإنسان)، والتعبير بالمضارع

(يخرج) يفيد أن عملية خلق الإنسان بنوعيه ممتدة في الأجيال ومتجددة تعود بداياتها إلى منطقة محددة في بدن الأبوين تقع "من بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ"، قال الكلبي: (يعني صلب الرجل وترائبه وصلب المرأة وترائبها)، والمذهل حقاً أن بداية تكون الخصية والمبيض ترجع فعلاً خلال الحياة الجنينية لهما إلى المنطقة الظهرية بين العمود الفقري وعظام الصدر في الجهتين، ويؤكد ذلك التحديد في قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" [لأعراف:١٧٢]، قال ابن الجوزي: (أخرج بعضهم من ظهور بعض( ) ،وفي تفسير الجلالين: (نسلا بعد نسل) ،و(الصلب) هو: (عظم الفقار المتصل في وسط الظهر)، ولفظ (الترائب) هنا بمعنى: (عظام الصدر جمع تريبة)، وهي متماثلة في الجانبين مما يتفق مع اشتقاق اللفظ من نفس مادة (أتراب) بمعنى متماثلات، قال المراغي: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ"، أي فلينظر بعقله وليتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه وأنه.. على إعادته أقدر.. "خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ"..حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرناً، بيان هذا أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره)، وترائبه هي عظام صدره، وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب، فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع، فإذا كانت الخصية والمبيض في

نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني وفي ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول ذلك الكتاب، هذا وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم، وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصفن فتحتاج إلى عملية جراحية، وإذا هدى الفكر إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان سهل أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث في اليوم الآخر.."إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ" أي إن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء .. قادر أن يرده حياً بعد أن يموت).

ربط النصوص الدينية بالظواهر الطبيعية

السؤال (٢٩٢٥٠): قرأت مقالاً في أحد المنتديات:

ذكر علماء الفلك أن كوكب المريخ قد تباطأت سرعته في الاتجاه الشرقي في الأسابيع القليلة الماضية، حتى وصل إلى مرحلة التذبذب ما بين الشرق والغرب،وفي يوم الأربعاء ٣٠ يوليو توقفت حركة المريخ عن السير في الاتجاه الشرقي، وبعد ذلك في شهري أغسطس وسبتمبر تحول المريخ بالانطلاق بشكل عكسي نحو الغرب،وذلك إلى نهاية شهر سبتمبر،وذلك

يعني أن الشمس تشرق الآن من مغربها على المريخ، وهذه الظاهرة العجيبة تسمى **retrograde motion** أو الحركة العكسية، ويقول العلماء إن كل الكواكب سوف تحدث لها هذه الظاهرة مرة على الأقل، ومن بينها كوكبنا (كوكب الأرض)، سوف تحدث له هذه الحركة العكسية يوماً ما، وسوف تشرق الشمس من مغربها،وقد يكون هذا الأمر قريباً ونحن غافلون.

قد قال رسولنا –ﷺ– إن من علامات الساعة الكبرى أن تشرق الشمس من مغربها، وعندما يحدث ذلك لا تقبل التوبة، والعجيب أن علماء الشريعة قد ذكروا أن طلوع الشمس من المغرب يحدث فقط مرة واحدة يوم الطلوع، ثم تعود إلى الطلوع من المشرق وتستمر هكذا إلى أن يشاء الله،وهذا مشابه لما يحدث في المريخ، فإنه يتوقف ويعكس الاتجاه لفترة بسيطة ثم يعود كما كان، وقال –ﷺ–: "إن الله –تعالى– يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها " رواه مسلم. إن هذا الخبر على خطورته فإنه يفتح أبوابا للدعوة سواء للمسلمين الغافلين أو الكفار، فعندما نعرض هذه الأحاديث التي ذكرت تلك الظاهرة قبل ١٤٠٠ سنة، فسوف يدخل في الإسلام خلقٌ كثيرٌ، وأما المسلمون فقد رأوا أن هذا الأمر حدث للمريخ، وما يدرينا لعله مقدمة لما سيحدث على كوكبنا في القريب العاجل.

وسؤالي: هل هذا الكلام صحيح؟ فنحن من كثرة ما نسمع من أحاديث آخر الزمان أصبحنا لا نعرف الحق من الكذب. أفيدونا جزاكم الله خيراً مع أملي بأن تلحقون الإجابة بعلامات الساعة الكبرى بالترتيب.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

تبدو النجوم للراصد الأرضي ثابتة على مر الأعوام نتيجة لبعدها الشديد، ولذا اتخذت منذ القدم علامات ثابتة يهتدي بها المسافرون، بينما تتغير مواقع الكواكب ويمكن رصد حركتها أمام النجوم، ولذا سميت بالسيارات، ومن المعلوم فلكياً أن الأرض هي الكوكب الثالث بالنسبة للشمس، ويسبقها عطارد والزهرة وتليها مجموعة الكواكب الخارجية التي منها المريخ والمشترى وزحل، وقد لوحظ منذ القدم أن السيارات الخارجية تنكص حركتها دورياً، فيقف تقدمها حول الشمس ظاهرياً وتبدو متراجعة، وقد فسرت تلك الظاهرة حديثاً على أساس أنها ذات مدارات أكبر من الأرض وسرعات أقل، ولذا تبدو دورياً متراجعة، بينما تنعدم تلك الحركة التناقصية الظاهرية في حالتي عطارد والزهرة؛ لأن مداريهما أصغر وسرعتهما أكبر، وفي الحقيقة أن حركة جميع الكواكب لا تتوقف سواء حول الشمس أو حول نفسها، وهذه الحركة التراجعية الظاهرية للكواكب معلومة لدى المفسرين – رحمهم الله- حتى إن بعضهم فسر بها قول الله – جل وعلا-: "فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس" [التكوير: ١٥-١٦] باعتبار أنها جوار أي سيارات والخنس النكوص والتراجع، وتراجع المريخ حالياً ليس إذاً ظاهرة غير معلومة سابقاً لننزل عليها أحاديث آخر الزمان، بل إحدى سنن الله المعتادة في خلقه، وينبغي الحذر والحيطة عند ربط النصوص الدينية بالظواهر الطبيعية أو الاجتماعية؛ لأن التعجل بإنزالها على الواقع بلا بينة

مجازفة وشهادة بغير علم، وقد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه خاصة مع ترصد من ينتظر زلة ليطعن في نصوص الوحي. والله –تعالى– أعلم.

طلوع الشمس من مغربها

السؤال (٢٩٤٦٣): فضيلة الشيخ حفظك الله، وصلتني قبل أيام رسالة عبر البريد الإلكتروني أرجو منك بيان صحتها ورأيك فيها وحكم الدين في مثل هذه الأخبار ولك جزيل الامتنان .

خبر عاجل وخطير: الشمس ستطلع من مغربها على المريخ طوال شهر سبتمبر.

ذكر علماء الفلك أن كوكب المريخ قد تباطأت سرعته في الاتجاه الشرقي في الأسابيع القليلة الماضية حتى وصل إلى مرحلة التذبذب ما بين الشرق والغرب، وفي يوم الأربعاء ٣٠ يوليو توقفت حركة المريخ عن السير في الاتجاه الشرقي، وبعد ذلك في شهري أغسطس وسبتمبر تحول المريخ بالانطلاق بشكل عكسي نحو الغرب، وذلك إلى نهاية شهر سبتمبر، وذلك يعني أن الشمس تشرق الآن من مغربها على المريخ وهذه الظاهرة العجيبة تسمى retrograde motion أو الحركة العكسية، ويقول العلماء إن كل الكواكب سوف تحدث لها هذه الظاهرة مرة على الأقل، ومن بينها كوكبنا، كوكب الأرض سوف تحدث له هذه الحركة العكسية يوما ما، وسوف تشرق الشمس من مغربها، وقد يكون هذا الأمر قريبا ونحن

غافلون لقد قال رسولنا ﷺ إن من علامات الساعة الكبرى أن تشرق الشمس من مغربها وعندما يحدث ذلك لا تقبل التوبة، والعجيب أن علماء الشريعة قد ذكروا أن طلوع الشمس من المغرب يحدث فقط مرة واحدة يوم الطلوع، ثم تعود إلى الطلوع من المشرق وتستمر هكذا إلى أن يشاء الله، وهذا مشابه لما يحدث في المريخ فإنه يتوقف ويعكس الاتجاه لفترة بسيطة ثم يعود كما كان، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا" رواه البخاري ومسلم. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "بادروا الأعمال ستا : فذكر منها طلوع الشمس من مغربها". رواه مسلم، وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها" رواه أحمد وقال ﷺ : "إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع لشمس من مغربها" رواه مسلم، إن هذا الخبر على خطورته فإنه يفتح أبوابا للدعوة سواء للمسلمين الغافلين أو الكفار، فعندما نعرض هذه الأحاديث التي ذكرت تلك الظاهرة قبل ١٤٠٠ سنة فسوف يدخل في الإسلام خلق كثير، وأما المسلمون فقد رأوا أن هذا الأمر حدث للمريخ وما يدرينا لعله مقدمة لما سيحدث على كوكبنا في

القريب العاجل، وهذا أحد المواقع الموثوقة التي نقلت هذا الخبر الهائل والذي لا يعرف قيمته إلا المسلمون :

http://www.space.com/spacewatch/mar...ade_030725.html

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

تبدو النجوم للراصد الأرضي ثابتة على مر الأعوام نتيجة لبعدها الشديد، ولذا اتخذت منذ القدم علامات ثابتة يهتدي بها المسافرون، بينما تتغير مواقع الكواكب ويمكن رصد حركتها أمام النجوم، ولذا سميت بالسيارات، ومن المعلوم فكلياً أن الأرض هي الكوكب الثالث بالنسبة للشمس ويسبقها عطارد والزهرة وتليها مجموعة الكواكب الخارجية التي منها المريخ والمشتري وزحل، وقد لوحظ منذ القدم أن السيارات الخارجية تنكص حركتها دورياً فيقف تقدمها حول الشمس ظاهرياً وتبدو متراجعة، وقد فسرت تلك الظاهرة حديثاً على أساس أنها ذات مدارات أكبر من الأرض وسرعات أقل، ولذا تبدو دورياً متراجعة، بينما تنعدم تلك الحركة التناقصية الظاهرية في حالتي عطارد والزهرة لأن مداريهما أصغر وسرعتهما أكبر، وفي الحقيقة أن حركة جميع الكواكب لا تتوقف سواء حول الشمس أم حول نفسها، وهذه الحركة التراجعية الظاهرية للكواكب معلومة لدى المفسرين – رحمهم الله- حتى أن بعضهم فسر بها قول

الله – جل وعلا–: "فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس" [التكوير: ١٥–١٦]باعتبار أنها جوار أي سيارات والخنس النكوص والتراجع، وتراجع المريخ حالياً ليس إذا ظاهرة غير معلومة سابقاً لننزل عليها أحاديث آخر الزمان بل إحدى سنن الله المعتادة في خلقه، وينبغي الحذر والحيطة عند ربط النصوص الدينية بالظواهر الطبيعية أو الاجتماعية لأن التعجل بإنزالها على الواقع بلا بينة مجازفة وشهادة بغير علم وقد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه خاصة مع ترصد من ينتظر زلة ليطعن في نصوص الوحي. والله تعالى أعلم.

ما الذي يحدد نوعية الجنين؟

السؤال (٢٩٤٧٦): السلام عليكم. وبعد:

رزقت بالبنت الثالثة ولله الحمد وأنا أرغب بإنجاب الذكر الآن، فهل الرجل هو الذي يحدد نوعية الجنين، وهل هناك حديث بهذا الشأن (إذا علا ماء الرجل...)؟، وما معنى هذا الحديث؟ وأرجو منكم الدعاء لي بأن يرزقني الله ذكراً صالحاً، وما الأحاديث التي تدل على فضل تربية البنات؟.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

في الحقيقة يعجب المتأمل أمام وفرة الحقائق العلمية في الكتاب والسنة في مجال خلق الإنسان، وذلك قبل أكثر من عشرة قرون من معاينة الحيوان المنوي، والبويضة مجهرياً ونشأة عمل الأجنة، ومن ذلك نشأة الإنسان تكويناً غير معتبر في النظر يماثل قطرة ماء (نطفة) في الضآلة فيها برنامج مقدر بصفات الإنسان المقبل تحمله أخلاط وراثية من الأبوين لقوله تعالى: "إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج" [الإنسان: ٢]، ولفظ: أمشاج، جمع ومعناه كما في البخاري: (الأخلاط ماء المرأة وماء الرجل) وفي تلك المرحلة تقدر الصفات، لقوله تعالى: "من نطفة خلقه فقدره" [عبس: ١٩]، وهذا قبل اكتشاف الدقائق (الجينات) والفتائل (الكروموزومات) الوراثية، وقبل اكتشاف دور كل من الأبوين في نقل الصفات، وقد كان السائد في القرن السابع عشر قبل اكتشاف البويضة ودورها في الإخصاب هو وجود الإنسان مصغراً في رأس الحيوان المنوي. ويقع الشبه نتيجة لتسابق الصفات وتغلب البعض، وهو ما دلت عليه الأحاديث النبوية كما في رواية البخاري: (إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد)،ورواية مسلم: "أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه"، ونتيجة لتغلب صفة الذكورة أو الأنوثة في تلك المرحلة يتقرر جنس الجنين كذلك، والبويضة لا تنقل إلا صفة الأنوثة (فتيلة الجنس على هيئة X) بينما ينقل الحوين المنوي إما صفة الذكورة: (فتيلة الجنس على هيئةY)، أو صفة الأنوثة كالبويضة تماماً، ويتقرر جنس الإنسان وانتزاع إحدى الصفتين باتحاد أحد النوعين بالبويضة، ويمكن أن تفهم عدة روايات باعتبار تغلب إحدى الصفتين بإذن الله، منها في مسند أحمد: "إن علا

ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله"، وهكذا يقدر الجنس وفق مشيئة الله سبحانه ولا اختيار أو مسؤولية على مخلوق، قال تعالى: "يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير"[الشورى: ٤٩-٥٠]، هذا وقد دلت الآثار النبوية على فضل تربية البنات كما في الرواية: "من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن"، قال: فقال رجل: وابنتان يا رسول الله؟ قال: وإن ابنتان، قال رجل: يا رسول الله وواحدة، قال: وواحدة" قال صاحب المستدرك على الصحيحين: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والله أعلم.

تفسير القرآن بالربط بين الأرقام والمعاني

السؤال (٣٤١٨٤): ما رأيكم في هذا التحقيق؟:اكتشف داعية إسلامي معروف معجزة إلهية داخل آيات القرآن الكريم، وذلك من خلال الربط بين علم الأرقام ومعانيها، مثل تلك التي تخبرنا عن التساوي بين الرجل والمرأة من حيث عدد مرات تكرار كلمة (الرجل) و (المرآة)، حيث تكرر ذكر كل منهما ٢٤ مرة، وقد أمكنه الربط بين معنى التساوي في كل موضوع للجنسين بعدد مرات تكرارهما.

وفيما يلي أمثلة أخرى عن الربط بين تكرار المفردة في آيات القرآن الكريم والمعنى الذي تتحدث عنه تلك الآيات:

"الدنيا" وردت ١١٥ مرة مقابل ١١٥ مرة لـ "الآخرة".

"الملاك" وردت ٨٨ مرة مقابل ٨٨ مرة لـ "الشياطين".

"الحياة" وردت ١٤٥ مرة مقابل ١٤٥ مرة لـ "الموت".

"النفع" وردت ٥٠ مرة مقابل ٥٠ مرة لـ "الضر".

"الناس" وردت ٥٠ مرة مقابل ٥٠ مرة لـ "الرسل".

"إبليس" وردت ١١ مرة مقابل ١١ مرة لـ التعوذ من الشيطان الرجيم.

"مصيبة" وردت ٧٥ مرة مقابل ٧٥ مرة لـ "الشكر".

"الصدقة" وردت ٧٣ مرة مقابل ٧٣ مرة لـ القناعة.

"الضالين" وردت ١٧ مرة مقابل ١٧ مرة لـ "الهالكين".

"مسلمين" وردت ٤١ مرة مقابل ٤١ مرة لـ "الجهاد".

"الذهب" وردت ٨ مرات مقابل ٨ مرات لـ رغد العيش.

"السحر" وردت ٦٠ مرة مقابل ٦٠ مرة لـ "الفتنة".

"الزكاة" وردت ٣٢ مرة مقابل ٣٢ مرة لـ "البركة".

"العقل" وردت ٤٩ مرة مقابل ٤٩ مرة لـ "النور".

"اللسان" وردت ٢٥ مرة مقابل ٢٥ مرة لـ البهجة والاحتفال.

"الرغبة" وردت ٨ مرات مقابل ٨ مرات لـ "الخوف".

"التحدث على الملأ" وردت ١٨ مرة مقابل ١٨ مرة لـ الخطبة.

"الظلم" وردت ١١٤ مرة مقابل ١١٤ مرة لـ "الصبر".

"مُحَمَّد" وردت ٤ مرات مقابل ٤ مرات لـ "الشريعة".

"الرجل" وردت ٢٤ مرة مقابل ٢٤ مرة لـ "المرأة".

وبمعجزة أخرى تأمل عدد مرات تكرار المفردات التالية:

"الصلاة": ٥ مرات.

"الشهر" : ١٢ مرة.

"اليوم": ٣٦٥ مرة.

"البحر": ٣٢ مرة.

"الأرض(اليابسة)": ١٣ مرة.

ملاحظة: الأرض = البحر + اليابسة = ٣٢ + ١٣ == ٤٥.

نسبة البحر من الأرض = (٣٢÷ ٤٥) ١٠٠ == ٧١,١١١١١١ %.

نسبة اليابسة من الأرض == (١٣÷ ٤٥) ١٠٠ == ٢٨,٨٨٨٨٨٨% .

نسبة اليابسة + نسبة البحر = ١٠٠%.

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث مؤخراً.

الجواب:

تعدد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

يجد المتأملون للقرآن الكريم على مر العصور وجوها من الإحكام والعلم بأسرار النفوس وخفايا التكوين وبينات تكشف حجب الزمان والمكان فوق تأثيره العجيب في النفوس الذي يهز الوجدان ولا يبلى على مر الأيام، والتحدي بالقرآن تتضمنه جميع المشاهد، وتعلنه صريحاً جملة من النصوص منها قوله – تعالى-: "فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين"، وقد يواكب ذلك سخرية واستهزاء بالمكابرين فتتحقق غاية الرفعة كما في قوله – تعالى- :" وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة:٢٣].

ومن وجوه الإحكام أن يناسب الاسم موضوع سياقه وحقيقة مسماه وخصائصه الرئيسة، ومن ذلك اختيار لفظ "زهرة" في مقام بيان سرعة زوال الدنيا وإن بدت ناضرة مرغوبه في قوله تعالى: "وَلاَ تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَىَ مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىَ" [طه: ١٣١]، فقد اختيرت الزهرة وهي أبهى أجزاء النبات إلا أنها الأسرع زوالاً، والمعلوم حالياً أن أنثى العنكبوت هي التي تبني بيتاً واهياً لا يحمي لاجئاً وليس مصير من يأوي إليه من الحشرات إلا الهلاك، فجاء التصوير البديع لحال من

يلجأ لغير الله –تعالى– بمشهد حسي مع العدول لتأنيث العنكبوت في قوله –تعالى–: "الّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" [العنكبوت:٤١]، ويؤكد علماء سلوك الحيوان اليوم أن أنثى الأسد هي التي تصيد عادة فجاء التصوير لهلع المكابرين أمام سطوة بينات القرآن الكريم على نفوس المكابرين بمشهد حسي وهو فرار الحمر الوحشية أمام الأسد مع العدول عنه إلى لفظ "قسورة" الدال على التأنيث في قوله –تعالى–: "فَمَا لَهُمْ عَنِ التّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنّهُمْ حُمُرٌ مّسْتَنفِرَةٌ فَرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ" [المدثر: ٤٩–٥٠]، وبالمثل يشهد المختصون اليوم بدراسة اللغات القديمة مثل الآرامية والمصرية القديمة أن الأسماء المعربة في القرآن مثل "إبراهيم" و"موسى" قد جاءت جميعها في سياقات تكشف دلالاتها في لغاتها الأصلية قبل أن يعرف أحد شيئاً عن تلك اللغات، وكذلك تفاضلت الألفاظ في رتبة النظم بما يناسب المقام ويوافق حقيقة مسمياتها وترتيبها في الواقع وتفاضلها في الأهمية، فمن يواجهك يقع مركز بصره في الدماغ خلف مركز سمعه رغم أن عينه تسبق أذنه، وفي المقامات التي تتعلق بالمفاضلة في القرآن تجد السمع يسبق البصر وبينما العين تسبق الأذن بلا استثناء، وفتائل عصب العين تفوق فتائل عصب الأذن، ولكن السمع أكثر أهمية من البصر ويبدأ وظيفته قبل الولادة ومن يولد بالصمم يصبح أبكم بخلاف من يولد أعمى، ويتوسط مركزي السمع والبصر منطقة تؤدي إصابتها إلى البكم وفي القرآن يتوسط البكم لفظي السمع والبصر بلا استثناء، وأما شواهد الإحكام العددي فكثيرة، ومنها التساوي العددي بين الألفاظ

وأضدادها في المعني بما يجلي التوازن في القرآن رغم نزوله منجماً على مدى يزيد على عقدين من الزمان في مناسبات بالغة التباين، مثل تساوي عدد لفظي الدنيا والآخرة، فقد ورد لفظ الدنيا ١١٥ مرة في القرآن كله ومجموع مشتقات الآخرة (١١٥) كذلك وبيانها كالتالي: الآخرة (٧١) بالآخرة (٢١) للآخرة (١) والآخرة (١٩) وبالآخرة (١) وللآخرة (٢)، ومثل تساوي مفرد مشتقات لفظي الرجل والمرأة: ٢٤، ومشتقات مفرد رجل كالتالي: رجل (١٣) رجلا (٧) فرجل (١) لرجل (٢) ورجلا (١) (المجموع (٢٤)، ومشتقات مفرد المرأة كالتالي: امرأة (٩) امرأتك (٢) امرأته (٥) امرأتي(٢) لامرأته (١) وامرأة (٢) وامرأته (٢) وامرأتي (١) (المجموع (٢٤) كذلك، وجاء تعداد الألفاظ موافقاً لدلالتها كورود مفرد اشتقاق لفظ شهر (١٢) مرة، وهو عدد شهور السنة، وبيانه كالتالي: الشهر ٤- بالشهر (١) شهر (٤) شهراً (٢) والشهر (١) (المجموع ١٢)، ورتبة التعداد معتبرة أيضاً في القرآن كالرتبة في النظم للألفاظ المميزة المسمى الموحدة الموضوع مثل السمع والبصر، فكما تقدم السمع نظماً تقدم تعداداً تأكيداً للمفاضلة والعناية بتقديم الأهم، وإذا استبعدت الروابط مثل "من" و "على" فإن أكبر لفظ رتبة في التعداد بلا نظير هو لفظ الجلالة "الله" وهو محور القرآن الكريم، وبذلك يتحقق الشعار "الله أكبر" دلالة وتعداداً، وهكذا تتكشف كل حين مظاهر من الإحكام تشهد بأنه تنزيل من عند العليم الحكيم، يقول العلي القدير: "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" [هود: ١].

كيف خلق الله الكون؟

السؤال (٣٤٨٢٣): سألني أحد إخواني في الإسلام: كيف خلق الله الكون؟ حاولت أن أجيب بما أعرف، لكن هو يريد وصفاً كيف الله – سبحانه وتعالى– عمل المياه والجبال؟ ومتى كان ذلك؟ في أي يوم مثلاً؟ فأرجو أن تفيدونا.

الجواب:

الحمد لله،والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

منذ القدم كان هذا الكون العجيب الممتد حولنا محط تساؤلات الإنسان وفضوله، ومن بين الأسئلة، كيف ظهر هذا الكون إلى الوجود؟ هل هو حادث أم أزلي؟ وما عمره؟ هذه بعض الأسئلة التي كانت دوماً محل جدل بين المؤمنين بمبدأ الخلق والملحدين الذين ادعوا عدم احتياج الكون إلى خالق؛ لأن المادة أزلية بزعمهم.

ولم يفت المفكرين المسلمين بيان تلك المسألة، ودفع وَهْم أزلية المادة، والجواب على الاعتراضات الفلسفية، فقالوا: بأن الذات العلية أزلية لا يحدها حادث عارض كالزمان أو المكان؛ لأن الزمان مبني على حركة الأجرام وتغير المكان بانتظام، والحركة وليدة الحدوث،ولا بد لها من قدرة أوجدتها، وحفظت النظام، قال ابن تيمية – رحمه الله– في مجموع الفتاوى(٦/٥٨٨): (الليل والنهار، وسائر أحوال الزمان تابعة للحركة، فإن الزمان مقدار للحركة، والحركة قائمة

بالجسم المتحرك)، وقال في درء التعارض(٩/١٥٥): (وأما قدم شيء من العالم فلا دليل لكم عليه، بل دليلكم يدل على نقيضه، فإنه لو كان المفعول مقارناً للفاعل لزم ألا يحدث في العالم شيء ، بينما قال أبو حامد الغزالي – رحمه الله–: بأن الكون حادث، وأنه لم يكن قبله زمان، أي أن بدء الزمان والمكان قد وقع مع خلق الكون؛ لأن الزمان مرتبط بالحركة، ولو تصورنا أن كل شيء في هذا الكون قد سكن وتوقف إذن لتوقف الزمان، أي: لم يعد هناك زمان، وهكذا فمن الخطأ توهم وجود زمان قبل خلق هذا الكون، وعندما أشارت النظرية النسبية إلى أن الزمان بُعْد رابع كالطول، والعرض، والارتفاع كان بديهياً عدم وجوده في عالم لم تخلق بعد أبعاده الأخرى، وقد تجمع اليوم من الأدلة العلمية ما يكفي للقطع بخلق الكون منذ عدة مليارات من السنين، وأن سرمدية المادة وهم، والدليل العلمي يدفعه، ولذا قد تلاشت الآن تماماً فرضية الحالة المستقرة، (steady state) للكون التي تقول بأن الكون لا مولد له، أي: أنه لا نهائي في الزمان والمكان، رغم أنها كانت نظرية مقبولة في الأوساط العلمية حتى منتصف القرن العشرين.

كم هو عمر الأرض؟ وما هو عمر الكون؟ هناك عدة طرق لتقدير العمر،مثل معدل تزايد ملوحة البحار لتقدير عمر البحار، ومعدل تحلل المواد المشعة لتقدير عمر القشرة الأرضية، وعمر النيازك والأحجار القمرية، وأما تقدير عمر الكون فيعتمد على معدل تباعد المجرات أو (ثابت هابل)، وعلى هذا الأساس يقدر عمر الكون بمليارات السنين، وباستخدام أدق الأجهزة في قياس قيمة ثابت هابل تقديره حالياً حوالي: ٢٤(٣٠-٢)كم/ ثانية، مما يعطي عمراً

للكون حوالي: ١٢,٥ (١٠-١٥) مليار سنة (عمر الكون = سرعة الضوء/ ثابت هابل × مليون).

والحقيقة أن مجرد اكتشاف الإنسان لظاهرة الإشعاع كان كافياً لدفع وهم أزلية المادة تهرباً من الإقرار ببدء الخلق الذي يقطع بوجود الخالق وقدرته، وأزليته وحده؛ لأنه ما دامت الشمس وجميع النجوم الأخرى مشتعلة، وتبعث الإشعاعات، إذاً فلا بد من وجود بداية لها؛ لأنها لو كانت أزلية لنفد وقودها منذ مليارات السنين.

وهكذا ساهم علم الفيزياء (physics)، في توجيه ضربات أليمة للملحدين قبل أن يوجه لهم الضربة القاضية بتأكيد بدء الخلق، ولا يمكن تجاهل دور علم الفلك (ASTRNOMY)، فكلاهما قدساهم بطريقة أو أخرى في معرفة العديد من خصائص الأجرام السماوية البعيدة بما يدفع أزلية الكون، فقد كشف (فاستو مالفن سليفر) عام ١٩١٣م، أن بعض الأجسام السماوية التي كان يعتقد سابقاً أنها غبار كوني تبعد عنا بسرعة: (٢١٨٠٠١كم/ ثانية)، وقد عرف من بعد أن تلك الأجسام لم تكن إلا مجرات، ثم أعلن إدوين هابل عام ١٩٢٩م قانونه القائل بأن المجرات (خارج مجموعتنا المحلية)، تبدو منحسرة بسرعة تتناسب طرديًّاً مع بعدها، وكان مغزى هذا الاكتشاف مفاجأة كبيرة للعلماء؛ لأنه يعني أن الكون قد عانى من التوسع عند نشأته وسبب حدية سرعة الضوء لا يعني أنه يتوسع الآن؛ لأن الضوء القادم يحتاج لأزمنة تتناسب مع الأبعاد، فيحتاج الضوء القادم من القمر حوالي ١ ثانية، ومن الشمس حوالي ٨ دقائق، ومن أقرب نجم حوالي ٤,٣ سنة، ومن أبعد ما يمكن رصده

سيحتاج باستخدام أكبر وحدة للزمن عمر الكون أي حوالي ٥٠سنة من سنوات الشمس (حوالي ٢٥٠مليون سنة من سنوات الأرض).

وعماد نظرية الانفجار العظيم هو أن انفجاراً قد وقع للمادة الأولية للكون مما أدى لتوسعته، ومن ثم برودته، وفي اللحظات الأولى من عمر الكون كانت درجة الحرارة هائلة نتيجة لتجمع المادة، وقد سادت فيها الجسيمات الأولية التي تمثل لَبَنات الذرات، ثم وجدت الذرات، منها تألف الغبار الكوني الذي نشأت منه فيما بعد المجرات، ولو شغَّلنا الفيلم عكسيًّاً فمن الضروري إذن أن الكون كله كان متركزاً في البدء في نقطة صغيرة، ولكنها قد جمعت كل كتلة الكون الحالي، وبسبب الانضغاط الهائل كانت البداية ذات حرارة هائلة لا تبلغها اليوم أعظم النجوم، ومع كل درجة حرارة يصدر إشعاع ذي طول موجي محدد يميزها، فلو كان هذا التصور صحيحاً فلا بد من إشعاع يغمر الكون كله الآن يعكس تلك الحرارة الهائلة، وهو ما كشفه بالفعل بنزياس وولسون عام ١٩٦٥م وتأكد وجود هذا الإشعاع عندما أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية لأبحاث الفضاء قمراً صناعياً عام ١٩٨٩م وبهذا أصبحت نظرية الانفجار العظيم (BIG BANG) مقبولة لدى معظم العلماء وأساسها تجمع مادة أولية في حيز صغير، ولك أن تواصل تشغيل الفيلم عكسياً حتى تصل إلى لحظة (الإبداع العظيم) التي لا يسبقها سوى انعدام المادة.

إن وهم أزلية المادة لا مستند له في الأصل كما هي حال كافة ادعاءات الملحدين التي تتلبس ثوب العلم، ونظرية الانفجار العظيم ليست إلا تصوراً وليد تجارب علمية أيدت عملياً بدء الخلق الذي نادى به رسل الله، بالإضافة

إلى جزئيات نظرية قابلة للتعديل وفق معطيات الكشوف العلمية، ولا يخفى أن التسمية بالانفجار مهما كانت عظمته فيها بعض التضليل؛ لأنها تقصر العودة في تلاشي الكون إلى مادة أولية مكومة وليس إلى مجرد العدم، ولا مبرر مقبول لتلك التسمية سوى التهرب السافر من الخلق من العدم المحض الذي يلزم بوجود الخالق، ولكنها لم تمنع أحد أعلام الفيزياء وهو البروفيسور/ ستيفن هاوكنج البريطاني من الاعتراف بأن وحدة البدء تقطع بوجود الخالق، وبالطبع وحدته ناهيك عن التصميم المتقن، والنظام الذي يمثل كشفه تاريخ العلم التجريبي بأجمعه (تاريخ موجز للكون هاولنج (ص١٢٢، ١٤٠)، وبالمثل قال ألفريد هويل: (تقول نظرية الانفجار الكبير بأن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير، ونحن نعلم أن كل انفجار يبعثر المادة دون نظام، ولكن الانفجار الكبير عمل العكس، إذ عمل على جمع المادة وفق تصميم وقدرة فريدة لتشكيل المجرات والنجوم والتوابع، ونشأة الإنسان على هذه الأرض، والنتيجة الحتمية التي توصل إليها العالم الأمريكي جورج كرنشتاين قد أعلنها بقوله: (كلما دقَّقنا في الأدلة التي يقدمها الكون المفتوح الصفحات أمامنا واجهتنا على الدوام الحقيقة نفسها، وهي أن هناك قدرة إلهية خلف بدء الخلق وكافة الأحداث)، ولكن المدهش أن علامات بدء الخلق التي تعلنها رسالة الكون إلى أهل النظر قد أمر القرآن الكريم بالبحث عنها في قوله –تعالى–: "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير" [العنكبوت: ٢٠].

علماء الإغريق واكتشاف مراحل الجنين

السؤال (٣٧٢٤٥): هل صحيح أن علماء الإغريق القدامى مثل أرسطو اكتشفوا كيف يتم تكوين الجنين في بطن أمه؟ أي قبل نزول القرآن على سيدنا مُحَمَّد -ﷺ-؟ لأن هناك شخصاً هندوسياً تحدى القرآن، وأبطل كون القرآن كتاباً علمياً، وأنه سبق الكثير من العلوم الحالية في اكتشافاته مثل تكوين الجنين. والسلام عليكم ورحمة الله.

الجواب:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

بخصوص السؤال عن الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الجنين، والتي كشفها القرآن الكريم هل كان يعرفها أحد زمن التنزيل؟؛

بديهي أن تسمع من المشككين مغالطات آملين التشويش على غير العارفين بالحقائق، ويكفي أن نخبة من كبار المختصين في العالم في علم الأجنة قد بهرتها الأوصاف العلمية الدقيقة في القرآن، فشاركت معنا في العديد من المؤتمرات العلمية الدولية، مقررة سبق القرآن للمعارف البشرية، ومعترفة أنه ليس بقول بشر، ومن هؤلاء (كيث مور) Keith Moore رئيس قسم التشريح وعلم الأجنة بجامعة (تورنتو) في كندا، ولك أن تطالع كتابه بالإنجليزية حول تخلق الجنين البشري The Developing Human لتجد أمامك مقابل

حقائق علم الأجنة المكتشفة حديثاً على يد أشخاص معروفين نفس الدلالات في القرآن، لتشهد للكتاب الكريم بالتنزيل.

عاش المفكر الإغريقي أرسطو Aristotle في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد أصاب شهرة واسعة؛ نتيجة لتأملاته في كثير من الظواهر الطبيعية قبل اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، وله مساهمات تجريبية في وصف تطور جنين الدجاجة وغيرها بالعين المجردة، حتى إن البعض يعتبره واضع أساس علم الأجنة، ومع ذلك فقد جاءت الثورة العلمية الحديثة ابتداء من القرن السابع عشر بمكتشفات نقضت معتقداته، ومن ذلك اعتقاده بتخلق الجنين من دم الحيض نتيجة للاتحاد مع السائل المنوي، وليس هو أول من وصف تطور جنين الدجاجة من الإغريق فقد سبقه (أبو قراط) Hippocrates بحوالي قرن عدا كثير من اجتهاداته في الطب، حتى إن كثيراً ممن يحاول من الغربيين قصر نسبة تاريخ العلوم على أسلافه يعتبره أبا الطب، وربما كان (جالن) Galen الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد أكثر دقة من أرسطو في كثير من أوصاف أجنة الحيوان بالعين المجردة، وفي العصور الوسطى قبل عصر النهضة عاشت أوروبا في كساد علمي لم يتجاوز كثيرا ترديد أفكار الإغريق، ولذا يتعجب البروفيسور (كيث مور) في كتابه من وفرة وتآزر الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الجنين في القرآن، فيقول: "لم تُضف في العصور الوسطى معلومات ذات قيمة في مجال تخلق الجنين، ومع ذلك قد سجل القرآن في القرن السابع وهو الكتاب المقدس عند المسلمين أن الجنين البشري يتخلق من أخلاط تركيبية من الذكر والأنثى، مع بيان تخلق الجنين في أطوار ابتداءً مما

يماثل في التركيب قطيرة أو نطفة تنغرس وتنمو في الرحم كالبذرة.. ومع وصف الجنين في أول مرحلة بما يماثل العلقة Leech التي تعيش على مص دماء الغير، ثم مما يماثل كتلة ممضوغة بما فيها من علامات أسنان وانبعاجات وهو ما يتفق تماما مع تطور الأعضاء في المرحلة التالية، وإذا أردت مزيدا من الأوصاف العلمية في القرآن في مجال علم الأجنة فإني أحيلك إلى كتابي طبعة ١٩٨٦..، مع العلم أن أول من درس جنين الدجاجة باستخدام عدسة بسيطة هو (هارفي) Harvey عام ١٦٥١، ودرس كذلك أجنة الأيل Deer ولصعوبة معاينة المراحل الأولى للحمل استنتج أن الأجنة ليست إلا إفرازات رحمية، وفي عام ١٦٧٢ اكتشف جراف Graaf حويصلات في المبايض ما زالت تسمى باسمه Graafian Follicles وعاين حجيرات في أرحام الأرانب الحوامل تماثلها، فاستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم وإنما من المبايض، ولم تكن تلك التكوينات الدقيقة التي عاينها (جراف) سوى تجاويف في كتل الخلايا الجنينية الأولية Blastocysts، وفي عام ١٦٧٥ عاين مالبيجي Malpighi أجنة في بيض دجاج ظنه غير محتاج لعناصر تخصيب من الذكر، واعتقد أنه يحتوى على كائن مصغر ينمو ولا يتخلق في أطوار، وباستخدام مجهر أكثر تطوراً اكتشف هام Hamm وليفنهوك Leeuwenhoek الحوين المنوي للإنسان للمرة الأولى في التاريخ عام ١٦٧٧ولكنهما لم يدركا دوره الحقيقي في الإنجاب، وظنا أيضاً أنه يحتوي على الإنسان مصغراً لينمو في الرحم بلا أطوار تخليق، وفي عام ١٧٥٩ افترض وولف Wolff تطور الجنين من كتل أولية التكوين ليس لها هيئة الكائن

المكتمل، وحوالي العام ١٧٧٥ انتهى الجدل حول فرضية الخلق المكتمل ابتداءً، واستقرت نهائيا حقيقة التخليق في أطوار وأكدت تجارب إسبالانزاني Spallanzani على الكلاب على أهمية الحوينات المنوية في عملية التخليق.. وقبله سادت الفكرة بأن الحوينات المنوية كائنات غريبة متطفلة، ولذا سميت بحيوانات المني Semen Animals، وفي عام ١٨٢٧ بعد حوالي ١٥٠ سنة من اكتشاف الحوين المنوي عاين (فون بير) von Baer البويضة في حويصلة مبيض إحدى الكلاب، وفي عام ١٨٣٩ تأكد شليدن Schleiden وشوان Schwann من تكون الجسم البشري من وحدات بنائية أساسية حية ونواتجها، وسميت تلك الوحدات بالخلايا Cells وأصبح من اليسير لاحقا تفهم حقيقة التخلق في أطوار من خلية مخصبة ناتجة عن الاتحاد بين الحوين المنوي والبويضة.. وفي عام ١٨٧٨ اكتشف فليمنج Flemming الفتائل الوراثية Chromosomes داخل الخلايا، وفي عام ١٨٨٣ اكتشف بينيدن Beneden اختزال عددها في الخلايا التناسلية، وفي القرن العشرين تم التحقق نهائيا من احتواء الخلية البشرية الأولى Zygot على العدد الكامل من تلك الأخلاط الوراثية من الذكر ومن الأنثى وعُرف عددها" .

هذا هو تاريخ اكتشاف تلك الحقائق التي سبق القرآن وذكرها قبل اكتشافها بقرون، فكيف لمحقق أن يجهلها أو يتجاهلها ويعارض الحقيقة إلا ويتهمه التاريخ والعلم بالجهل أو الحيدة عن الإنصاف!، يقول العلي القدير: "مّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً" [نوح: ١٣و١٤]، ويقول عز وجل:

"يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ" [الحجرات: ١٣]، قال القرطبي: "بَيَّنَ الله –تعالى– في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم ويستمد من الدم الذي يكون فيه.. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية فإنها نص لا يحتمل التأويل"، ويقول عز وجل: "إِنّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ" [الإنسان: ٢]، قال الشوكاني: "وأمشاج صفة لنطفة وهي جمع مشج أو مشيج وهي الأخلاط والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما"، وقال ابن القيم: "الجنين يخلق من ماء الرجل وماء المرأة خلافا لمن يزعم من الطبائعيين أنه إنما يخلق من ماء الرجل وحده، إن فيض التفاصيل العلمية في القرآن، والتي يستحيل أن يدركها بشر زمن التنزيل هي بعض دلائل النبوة الخاتمة التي تسطع اليوم أمام الناظرين.

تساؤلات حول كتاب الطب الوقائي من القرآن والسنة

السؤال (٣٨٤٣٩): ما صحة ما نقله الدكتور عبد الباسط مُحَمَّد السيد في كتابه (حول الإعجاز العلمي في الطب النبوي)، أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– كان: يفطر على العسل مخلط مع الماء، ثم في وقت الضحى كان يأكل سبع تمرات مع اللبن، وفي الظهر كسرة خبز شعير مع الخل، وبعد العصر جزرا مع عود من البقدونس، وكان عشاؤه اللبن الرائب مع كسرة الشعير، وكان ينهى عن إدخال طعام في طعام، وكان يأكل الثريد مرة كل شهر، وكان يقول سيد الطعام الثريد، وكان يمشي بعد العشاء مقدار البقرة وآل عمران (أرجو ذكر المراجع لتثبيتها في بحثي).

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

كتاب الدكتور عبد الباسط مُحَمَّد السيد اسمه "الطب الوقائي من القرآن والسنة"، وقد صدرت منه الطبعة الأولى عام ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار ألفا مصر: alfa_eg@hotmail.com، ولم تقم أي جهة مسئولة مثل هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بتحقيقه، وقد وردت فيه أمور تستدعي التوقف، مثل قوله (ص٥٩): "لقد أخذ كيث مور عينات من نطفة لم تبلغ ٤٢ ليلة وحاول معرفة جنسها؛ ذكر أم أنثى، واستخدم كل وسائل التكبير والأشعة المتاحة فلم يستطع أبداً تحديد جنس النطفة، وظل يراقب النطفة طوال ٤٢ ليلة حيث ظهر كروموزوم جنس الجنين في اللحظات الأخيرة.. وعندئذ نطق بالشهادتين وأشهر إسلامه"، وهذا الأسلوب الدعائي في هيئة رواية غير منسوبة لأحد ينبذه التحقيق العلمي، خاصة أن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة هي التي قامت بنفسها بمحاورة أستاذ الأجنة الكندي، وتعرف حقيقة ما حدث من وقائع، وهل يعذر الكاتب عدم تخصصه في الطب ليقرر ظهور كروموزوم جنسي في اللحظات الأخيرة بعد ٤٢ ليلة، خاصة مع توفر من يفيده بيقين بأن حوامل الخصائص الوراثية (الكروموزومات) لا تظهر فجأة بعد ٤٢ ليلة، وإنما توجد جميعا داخل الخلية البشرية الأولى؟، ولكن هذا مصير من يعدل عن التحقيق العلمي مهما

كان غرضه، ومن ذلك قوله (ص٦١): "عملية انتخاب طبيعي للحيوان المنوي وللبويضة الأقوى والأصلح"، وهي ليست إلا بويضة واحدة، وقوله (٦٢): "وقد أثبت كيث مور أن كل السوائل في جسم الإنسان علق، فلو أخذ قليل من الدم ثم ترك ساكناً فإن كرات الدم الحمراء والبيضاء تترسب.. أي أن الدم علق"، هكذا!، وقوله (ص ٦٥): "أما عن ترائب المرأة أي عظام صدرها فقد أثبت العالم كيث مور أن هذه العظام تصل للمبيض الذي تنتج فيه البويضات، وهنا خر العالم الكندي ساجدا لله"، ويقع المبيض في تجويف الحوض وليس له أي علاقة تشريحية بعظام الصدر، وهو أيضا يأتي بروايات لا ينسبها لأي كتاب من أمهات كتب الحديث، ولا يورد تحقيقها (مثلما في ص٥٩و٦٤)، ولكنه لم يورد رواية السائل في كتابه، ولم أجدها في كتب الحديث، وفي الجملة لم يُنسج الكتاب على طريقة المختصين في التحقيق، وإنما كمرئيات شخصية، والأولى أن يعود السائل إلى المختصين في علم الحديث، والله أعلم.

العقل في القلب أو الدماغ

السؤال (٣٩٦٦٣): السلام عليكم.

ما التفسير الصحيح للآيات التي تفهم كأن الإنسان يعقل ويتفكر بقلبه الذي في صدره بينما كلنا يعرف أن الطب أثبت أن الدماغ الذي في الرأس هو الذي يقوم بكل هذا؟ وجزاكم الله خيراً .

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

إن الدماغ أو المخ Brain هو موضع الملكات المميزة للإنسان من قدرات فكرية وذهنية وقيم إنسانية وليس القلب كما كان يُتوهم سابقاً، وإن شبهة مخالفة القرآن الكريم لتلك الحقيقة لا أساس لها وتتطلب العلم بأساليب البيان في اللغة التي نزل بها، فلم يقل الكتاب العزيز لا تصريحاً ولا تلميحاً أن القلب هو محل العقل، لكنها قضية حيرت الفلاسفة قديما، أما المفسرون فقد بينوا أن القلب "مَثَل" من باب التعبير عن المعنوي بحسي لتحقيق غاية التبيين بالتصوير، ويسجل التاريخ للأعلام التوفيق في السلامة من الوقوف عند ظاهر اللفظ بالاحتياط والتحفظ في بيان المحل، فسلم من تركه بلا تعيين وتألق من وظف شهادة الواقع وأخذ بها في الترجيح معتبراً فعل الخالق تفسيرًا لقوله، قال ابن عاشور (رحمهم الله جميعاً): "أطلقت القلوب على.. العقل على وجه المجاز المرسل لأن القلب هو مُفيض الدم – مادة الحياة – على الأعضاء الرئيسية وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ" [الحج:٤٦]، وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرَى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال:"يَعْقِلُونَ بِهَا" فأشار إلى أن القلوب هي العقل" ، وقال بمثل هذا التأويل الجمع الغفير، قال القاسمي: "المعنى: ليس الخلل في (حواسهم)

وإنما في عقولهم بإتباع الهوى والانهماك في الغفلة، وفائدة ذكر الصدور هو التأكيد.. لتقرير معنى المجاز" ، وقال النيسابوري "وَلَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ": في هذا التصوير زيادة التمكين والتقرير لغرابة نسبة العمى إلى القلب.. والمعنى.. أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم، أو لا تعتدوا بعمى الأبصار وإن فرض لأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، وزعم بعضهم أن في الآية إبطالا لقول من جعل محل (الإيمان أو) الكفر الدماغ وليس بقوي" ، وقال الأصفهاني: "قال بعض الحكماء حيثما ذكر الله تعالى القلب فإشارة إلى العقل والعلم، نحو "إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ"، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك.. وقوله "رَبّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي" فسؤال لإصلاح قواه، وكذلك قوله "وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مّؤْمِنِينَ" إشارة إلى اشتفائهم، وقوله "وَلَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ"؛ أي العقول" ، وقال أيضاً: "الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية.. والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن" ، وفي قوله "إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ"؛ قال ابن القيم: "لم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات" ، وفي قوله "وَاعْلَمُواْ أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ"؛ قال الرازي: "كأنه قال بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء فإن ذلك غير موثوق..، قال مجاهد المراد من القلب هاهنا العقل، فكان المعنى أنه يحول بين المرء وقلبه، والمعنى فبادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون فإنكم لا تؤمنون زوال العقول التي عند ارتفاعها يبطل التكليف، وجعل القلب كناية عن العقل جائز كما قال تعالى: "إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ"؛ أي لمن كان له

عقل" ، وسلبهم القلوب وهي في صدورهم فعلاً يتفق مع كونها تمثيل وتشبيه للقوى العقلية الهادية إلى الإيمان ونجاة الإنسان بالقلب السليم في البدن غير المريض بالشبهات أو الاغترار والمكابرة.

وقد يرد لفظ "القلب" في الأثر للتصوير والتمثيل كما هو في القرآن، ومنه الحديث: (القلوب أربعة، قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٣ص١٧ والطبراني في الصغير عن أبي سعيد الخدري؛ قال ابن منظور: "في الحديث القلوب أربعة.. إنما هو تمثيل" ، ومثله الحديث: "(قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء).. تمثيل لسرعة تقلب القلوب وإن ذلك أمر معقود بمشيئته" ، والعبرة في الدين هي في معرفة الله والانتباه للمصير وحضور العقل واستعماله لبلوغ الإيمان واليقين، أو الغفلة بإهماله وتغييبه والعناد، "وفي حديث دعاء الانتباه (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) سمي النوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها لا تحقيقا" .

فكما ترى يصرف الأجلاء لفظ "القلب" عن ظاهر دلالته الحسية المعروفة إلى معانٍ مثل ذات الإنسان وحقيقته وروحه وضميره وسلامة اعتقاده المحركة لأفعاله، يقول أبو حامد الغزالي: "وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر"، وفي قوله تعالى "إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" ق ٣٧؛ يؤصل إمام البلاغة عبد القاهر

الجرجاني التعبير بلفظ القلب من باب التشبيه والتمثيل فيقول: "جعل الذي لا يعي ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر كأنه قد عُدِمَ القلب من حيث عدم الانتفاع به (أي مات).. كما جُعل الذي لا ينتفع ببصره وسمعه ولا يفكر فيما يؤديان إليه ولا يحصل من رؤية ما يرى وسماع ما يسمع على فائدة بمنزلة من لا سمع له ولا بصر، فأما تفسير من يفسره على أنه بمعنى من كان له عقل.. كأن القلب اسم للعقل.. فمحال باطل لأنه يؤدي إلى إبطال الغرض من الآية وإلى تحريف الكلام عن صورته وإزالة المعنى عن جهته، وذاك أن المراد به الحث على النظر والتقريع على تركه وذم من يخل به ويغفل عنه..، بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر كأنه ليس بذي قلب، كما يجعله كأنه جماد وكأنه ميت لا يشعر ولا يحس..، وفسر العمى والصمم والموت في صفة من يوصف بالجهالة على مجرد الجهل، وأجرى جميع ذلك عل الظاهر فاعرفه، ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا أبدًا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة" .

دعني أحاول توضيح ما انتهى إليه الأعلام بمثال يجسد قضية التصوير والتمثيل في القرآن للتوضيح والتبيين، فقد يعبر القرآن عن الحقيقة بروائع تصويرية تُجسد المشاعر والمعنويات وتنطِق فيها الجمادات في مشاهد تثير المخيلة لتتصور المواقف كأنها وليدة الساعة فيعايشها كل إنسان كأنه فيها، تأمل كيف يُجَسِّد القرآن حال قوم إبراهيم عليه السلام عندما رجعوا عن اعترافهم بحجته: "ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىَ رُءُوسِهِمْ" [الأنبياء:٦٥]، وتحديد الانتكاس أنه "عَلَىَ رُءُوسِهِمْ"

قاطع بانقلاب الهيئة لتُلامس الرأسُ الأرضَ وترتفع الأرجلُ عالياً؛ هكذا!، مشهد خزي لا يحسدهم عليه أحد تعرت فيه العورات فترى كل واحد بهيئة مهتز آيل للسقوط يحاول ستر عورته فلا يستطيع ويحاول حفظ توازنه فلا يتمكن، وهذا لا يعارض الحقيقة لأنه قائم على التمثيل أو قل "ضرب المثَل" وفق تعبير القرآن الكريم، قال أبو السعود: "شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه" ، وقال الشوكاني: "أي رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، وقيل المعنى أنهم طأطئوا رؤوسهم خجلة من إبراهيم وهو ضعيف لأنه لم يقل (نَكَسُوا رُؤوسَهُم) بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح" ، وقال النسفي: "أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم.. ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة" ، وقال الطبري: "معنى ذلك ثم رجعوا عما عرفوا من حجة إبراهيم.. لأن نكس الشيء على رأسه قلبه على رأسه وتصيير أعلاه أسفله، ومعلوم أن القوم لم يقلبوا على رؤوس أنفسهم" ، فالغرض بيان مضمون ولا يُراد ظاهر الحسي الممثل به ولا ضرورة للجدل حول تحققه من عدمه إذ ليس إلا صورة تجسد حقيقة معنوية، وبتجسيد المعنويات إذن في مشاهد حسية يُمكن تأمل ما التبس فهمه فإذا هو عجيبة في البيان وغاية في الإحكام.

والإنسان يتميز بملكات تُبلغه أقصى درجات الإيمان بالله عبَّروا عنها بالعقل؛ كقوة التمييز والفكر والإدراك والاستنتاج والضبط والبيان، وإذا لم يوظف الإنسان ملكاته تلك لبلوغ اليقين بالله لا يُمَيَّز عن الحيوان؛ أو قل مات، وقد نسب القرآن تلك الصفات إلى ذوات لم أتبينها لا في الأصل ولا فرعه القلوب

منبع حياة الأجساد؛ مما دفع الأعلام إلى تأويل تلك الذوات بالعقل والفهم، أو حملها على التشبيه والتمثيل خاصة مع التعبير عن الملكات الإنسانية بألفاظ أخرى مثل الأفئدة والصدور والحجر والأحلام والنهى والرشد، وتحمل هذه الألفاظ مضامين كالمكانة والأساس والمقصد المطلوب والخفاء وحقيقة الذات والضابط المانع للانفلات، وهكذا تنوع التعبير عن الملكات الإنسانية مع تفرد كل منها بدلالة خاصة وتنوع الجانب الدلالي في كل سياق، وعدم الاقتصار على لفظ "القلب" في التعبير عنها قرينة صارفة إلى التشبيه والتمثيل؛ تماما مثل لفظ "الألباب"، فالثمرة الفاسدة اللب أو التي بلا لب يؤكل لا خير فيها ولا نفع منها؛ كذلك من لم يوظف ما ميزه الله به عن الحيوان.

قال ابن منظور: "لب كل شيء و لبابه خالصه.. وقد غلب اللب على ما يؤكل داخله ويرمى خارجه من الثمر، ولب الجوز واللوز ونحوهما ما في جوفه.. ولب النخلة قلبها.. ولباب القمح ولباب الفستق ولباب الإبل خيارها.. ولب كل شيء نفسه وحقيقته.. واللب العقل والجمع ألباب.. ولبيب عاقل ذو لب.. والأنثى لبيبة" .

وقال الرازي: "أما قوله تعالى: "يَأُوْلِي الأَلْبَابِ"؛ فاعلم أن لباب الشيء ولبه هو الخالص منه، ثم اختلفوا بعد ذلك، فقال بعضهم: إنه اسم للعقل لأنه أشرف ما في الإنسان، والذي تميز به الإنسان عن البهائم.. واستعد به للتمييز..، وقال آخرون: إنه في الأصل اسم للقلب.. والقلب قد يجعل كناية عن العقل..، فكذا هاهنا جعل اللب كناية عن العقل، فقوله: "يَأُوْلِي الأَلْبَابِ" معناه: يا أولي العقول" ، وقال القنوجي: "القلب له معنيان أحدهما اللحم

الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدور..، والحيوانات كلها متشاركة في هذا النوع من القلب..، وثانيهما لطيفة ربانية نورانية.. يتعلق بالقلب بالمعنى الأول، وهو المخاطب والمكلف وبه يثاب الإنسان ويعاقب" ، وقالوا: "العقل الحجر والنهى ضد الحمق..، (و) رجل عاقل.. الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها..، والعقل التثبت في الأمور، والعقل القلب، والقلب العقل" ، و"يستعار العمى للقلب كناية عن الضلالة، والعلاقة عدم الاهتداء" ، و"الصدور يكنى بها عن القلوب" ، والحجر بالكسر العقل واللب لإمساكه ومنعه وإحاطته بالتمييز..، وفي التنزيل "هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ" ، وقوله تعالى: "إِنّ فِي ذَلِكَ لاَيَاتٍ لأُوْلِي النّهَىَ"؛ أي "لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح" ، والحلم خلق ضابط للسلوك وبهذا تلتقي دلالة اللفظ مع الحجر والنهى، لذا: "قد يكنى عن العقول بالأحلام.. قال الله تعالى "أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَـَذَا" ، وهكذا جاء التعبير عن الملكة الإنسانية تصويرياً بألفاظ متباينة مستعملة لدلالات أخرى لعلاقة بينها، وهي جميعاً سواء كانت أسماء صفات أو ذوات قائمة على التصوير والتمثيل لبيان صفات تُميز الإنسان عن الحيوان.

وقد لُوحظ منذ القدم أن المضروب في قلبه يموت مما رسَّخ الاعتقاد أن القلب منبع الحياة وبتلفه يهلك الجسد، وحَمَلَ الإرث اللغوي من أمثال واستخدامات مجازية ما يؤكد ضرورته لحياة سائر الأعضاء، وتؤثر الانفعالات النفسية على القلب فتتسارع ضرباته أو تهدأ، ولذا نشأ التوهم بأنه محل الفكر ومرجع

الحواس الخمس خاصة أن دور الدماغ لم يكن قد تحدد بعد، وخلال الثورة العلمية المحمومة لكشف المجهول في القرون الثلاثة الأخيرة رُفعت الأستار شيئا فشيئا وانقشعت الظلمات واتضح بجلاء أن الدماغ هو محل الانفعالات التي يتأثر بها القلب، وإليه تنتهي كافة المعلومات المستمدة من الحواس والتي يقوم بتحليلها قبل اتخاذ القرار، وتبين أن شخصية الإنسان ترجع أساساً إلى منطقة الناصية أو مقدم الرأس حيث يقع الفص الجبهي Frontal lobe في المخ، وتحديدا في الجزء الأمامي منه Prefrontal area حيث يقع مركز القيادة وتتخذ كافة القرارات، وتتبعه من الأمام للخلف منطقة صياغة الكلام Broca's area ثم منطقة الحركة Motor area بحيث إذا اتخذ قرار في مركز القيادة يتم تنفيذه على الفور بهيئة قول أو فعل، كما لو كانت مكاتب السكرتارية مرتبة قرباً وفق درجة الاستنفار بجانب حجرة المسئول تنتظر القرار، ووفق التأهيل الفطري لا يتخذ القرار عشوائيا وإنما بناء على تحليل المدركات الحسية وحصيلة الخبرات المختزنة والميول النفسية والعاطفية، لذا تسمى منطقة اتخاذ القرار تلك حارس البوابة Gatekeeper، هذا هو الترتيب الداخلي للناصية مركز القيادة المسئول عن اتخاذ القرار عند الإنسان.

والعجيب أن منطقة الناصية بعينها هي التي تُختار في القرآن في مثال يكشف دورها لتقع عليها المؤاخذة وحدها دون سائر الأعضاء وتُرتب فيها الأقوال الكاذبة قبل الأفعال الخاطئة بنفس الترتيب المخبوء داخل الدماغ، قال تعالى: "كَلاّ لَئِن لّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ" [العلق:١٥و١٦]، وبهذا الحسم يسجل القرآن السبق في حل معضلة محل الفكر أو العقل؛ القلب

أم الدماغ؟ والتي حيرت الألباب قبل توفر الإمكانيات لمعاينة دلائل الوحي، والقطع في القرآن في نسبة التمييز وضبط السلوك إلى منطقة مقدم الرأس بتوجيه المؤاخذة إلى الناصية دون سائر الأعضاء يؤكد بداهةً استخدام لفظ القلوب في القرآن على سبيل التصوير والتمثيل ويدفع قطعا التوهم بأن القلوب التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان هي محل التمييز والسلوك الاختياري، خاصة مع جعل منطقة الناصية من الرأس هي محل التمييز والسلوك الغريزي في سائر الحيوان بما يؤهله كل منه بقدرات تناسب بيئته وتحفظ سلامة الفرد والجماعة، يقول العلي القدير: "مّا مِن دَآبّةٍ إِلاّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنّ رَبّي عَلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ" [هود:٥٦]، ومن الدلائل المبهرة على أن القرآن ليس بقول بشر ويستحيل أن يخالف الحقائق أن جميع الوظائف الإدراكية والسلوكية سواء وردت دالة على الوظيفة كالسمع والبصر أو مسلوبة الوظيفة في حق الكفار لأنهم عطلوها كما في قوله تعالى "صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ"؛ جميعها جاءت مرتبة وفق الترتيب المخبوء بالدماغ بما فيها آية الوضوء مع أنها تخص الأحكام مما يقطع بأن هذا الكتاب الكريم هو كلام الخالق سبحانه وتعالى الذي يعلم وحده بخفايا ما خلق.

تسجيل لتوهم انتهاء كل الحواس الخمس إلى القلب يرجع لبداية عصر النهضة ويشهد للقرآن بالسبق.

وفي قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنّهَا لاَ تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ" [الحج:٤٦]، ظاهر التعبير أنه لو كانت لهم قلوب فعلا وتأملوا بأبصارهم

مظاهر القدرة والإبداع في الخلق –كما يعني هنا تعبير السير في الأرض – لعقلوا بديع صنع الخالق وقدرته، ولكنهم بلا قلوب أصلا في الصدور أي موتى فلن يعقلوا إذن حتى ولو نظروا في الخلق، وهذا النفي يعني أن "الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ" تعبير عن بصائر التمييز أو العقل وفق مصطلح المفسرين لأنهم يمتلكون تلك القلوب فعلاً، وبهذا قد جعل القرآن الفاقدين لبصائر التمييز موتى كمن تعطلت قلوبهم التي في الصدور، ووصف القرآن للكفار في مواضع بأنهم كالحيوان رغم اشتراكهم معه في امتلاك تلك القلوب التي في الصدور يؤكد أن لفظ "القلوب" تمثيل للملكات الإنسانية بياناً للأهمية والمكانة لا المكان وتجسيدا للمعنوي بحسي مألوف، وتلاحظ أن القرآن لم ينسب القلوب للحيوان قط مع أنه يمتلكها حقيقةً مما يؤكد أنها مجاز وتمثيل كما قال الأجلاء، ويرجع مصدر الشبهة إلى نسبة التعقل للقلوب وتعيين محلها بالعبارة (التي في الصدور) مما يوهم أنها محل العقل، ولكن القرائن الصارفة لم تخف عليهم مع التسليم ابتداءً أن القلوب عند الإنسان والحيوان سواء هي في الصدور، ومع صرف لفظ "القلوب" إلى معانٍ دقيقةٍ تناسب كل مقام مثل البصيرة؛ قالوا بأن تعيين المحل لتأكيد نسبة العمى، قال ابن منظور: "كلما ذكر الله جل وعز العمى في كتابه فذمه فإنما يريد عمى القلب، قال تعالى "فَإِنّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ"، وقوله تعالى "صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ" هو على المثل، جعلهم في ترك العمل بما يبصرون ووعي ما يسمعون بمنزلة الموتى" ، "وقوله عز وجل: "وَلَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ"؛ والقلب لا يكون إلا في الصدر، إنما جرى هذا على التوكيد، كما قال عز وجل: "يَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِهِم"؛ والقول لا يكون إلا بالفم، لكنه أكد بذلك" ، وظاهر التعبير ينفي ابتداء بالمثل أن تكون لهم آذان رغم وجودها الفعلي وإلا لوعوا واستجابوا لبينات الحق وفق أقصى ما يؤديه فعل السمع من معنى في السياق، فجعل تعطيل وظيفتها كفقدانها، ورفع الوصف بالعمى عن الأبصار ونسبته للقلوب يعنى أن المراد العمى المعنوي عن الحق وإن كان صاحبه سليم العينين، وأن المرض المعنوي لبصائر التمييز كمن أصيب قلبه فهلك بدنه، وبهذا تكون البصيرة في القرآن هي القيمة الحقيقية للإنسان المميزة له والقلوب والأعين والآذان مجرد أدوات.

إن القوى الإنسانية ترجع جميعاً في الأساس إلى القلب لأنه المتعلق بالحياة وبتوقفه عن العمل تهلك سائر أعضاء الجسد، لذا كانت "الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ" خير مثال لكينونة الإنسان ومكنونه الذي لا يطلع عليه إلا الله تعالى، خاصة أن التفكر أو التعقل أساسه القلب باعتباره أساس الحياة وإن كانت القوى العقلية تنتهي جميعاً إلى الدماغ، قال ابن القيم: "المسألة التي اختلف فيها الفقهاء: هل العقل في القلب أو في الدماغ؟ على قولين حكيا روايتين عن الإمام أحمد، والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ..، (لأن) الرجل يضرب في رأسه فيزول عقله ولولا أن العقل في الرأس لما زال..، فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته، كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم والممالك والأمم في هذا المحل الصغير!، والإنسان يحفظ كتبا كثيرة جدا وعلوما شتى متعددة وصنائع مختلفة فترتسم كلها في هذا الجزء الصغير من غير أن يختلط بعض هذه

الصور ببعض!" ، وهكذا وردت تصاريف لفظ القلب في القرآن ١٣٢ مرة ولا تجد فيها نصاً واحداً قطعي الدلالة على أنه محل الفكر واتخاذ القرار وضبط السلوك، وإنما هو "مَثَل"؛ تصوير للمعنوي بمألوف حسي للتبيين لوجوه شبه كالمكانة لا المكان، وإلا فالقلب العضوي يشترك فيه الإنسان مع الحيوان؛ فانتبه!.

قال الزركشي: "وضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة..، (منها) ترتيب المراد للعقل وتصويره فى صورة المحسوس..، قال تعالى: "وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ"..، وقال "وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاّ الْعَالِمُونَ"..، والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط" ، وقال ابن تيمية: "وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجود في القرآن منها أجناسها، وهي معلنة ببلاغة لفظه ونظمه وبراعة بيانه اللفظي، والذين يتكلمون في علم البيان وإعجاز القرآن يتكلمون في مثل هذا..، (و) الأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته "مَثَلاً"، ومنها ما لا يسمى بذلك..، (وكمثال) جعل الزوج لزوجه لباسا..، قال تعالى "هُنّ لِبَاسٌ لّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لّهُنّ" فسماهن لباسا..، وجعل التقوى لباسًا على طريق التمثيل والتشبيه؛ قال تعالى "وَلِبَاسُ التّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ"، وقوله "وَعَلّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مّن بَأْسِكُمْ" يعني به الدرع، و(في) قوله "وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مّطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مّن كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ"؛ جعل الجوع والخوف لباسا على التجسيم والتشبيه تصويرا له" ، وقال الجرجاني: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل

التصوير والصياغة.. كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة تلك الصورة أو الذهب.. كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه (الحسي).. وهذا قاطع فاعرفه" ، "وليست العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور" ، و"ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء" ، والكناية في مصطلح البلغاء هي التعبير بالشيء وإرادة لازمه، يعني عدول عن التصريح إلى الإشارة والتلميح، ويضربون مثلاً بمدح الرجل زوجته التي تظلله والبادية الإشراق في عينه كالشمس قائلاً: "شمس تظللني من الشمس"، والتعريض عدول عن التصريح لأغراض كالتلطف، فحكمةً عامةً مثل "خير الناس أنفعهم للناس" قد تكون تعريضاً يقال في حضور شخص بعينه أصابه الكسل كي ينشط في فعل الخير، ألا ترى معي أن نفس الدعوة لفعل الخير مع التلطف في التعبير هي مضمون الأثر: "ألا إن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"، أرى أن التعبير يكاد ينطق قائلاً بالتمثيل للإنسان بالجسد وللبصيرة وملكة التمييز بالقلب.

ومجمل القول أن المراد بلفظ "القلب" في القرآن هو التمييز المبلغ للإيمان، فهو ما يميز الإنسان عن الحيوان وهو مناط التكليف، وهو ما ثبت بيقين أن محله الدماغ؛ مما يصرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى لب الشيء وحقيقته وجوهره، والقلب العضوي يجسد المعنى للتبيين من باب التصوير والتمثيل، قال كثير من

الأعلام: ''وقد يعبر بالقلب عن العقل، قال الفراء في قوله تعالى "إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ"، أي عقل قال الفراء وجائز في العربية أن تقول ما لك قلب وما قلبك معك تقول ما عقلك معك وأين ذهب قلبك أي أين ذهب عقلك، وقال غيره لمن كان له قلب أي تفهم وتدبر'' ، و"التمييز يقال للقوة التي في الدماغ وبها تستنبط المعاني" ، و"الدماغ مسكن العقل" ، وقال ياقوت الحموي: "إذا فسد الدماغ فسدت الحواس" ، وقال ابن تيمية (رحمهم الله أجمعين): "لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن.. كما في الصحيحين عن النبي أن (في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد فإن فسدت فسد لها سائر الجسد)، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا، فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك.. وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه.. ولهذا قيل إن العقل في الدماغ كما يقوله كثير من الأطباء، ونقل ذلك عن الإمام أحمد" .

فإذا كان هذا شأن أعلام البيان والتأويل قبل تجلي الحقيقة؛ ألا يسعنا ما وسعهم ونحن نعاين الحقيقة من حمل لفظ "القلب" في القرآن والحديث على المعاني التصويرية!؛ خاصة مع بيان القرآن لما تحققنا منه اليوم من أن العمليات الإدراكية والسلوكية المميزة للشخصية محلها منطقة الناصية من الرأس مع ترتيب الوظائف جميعا بما يطابق ترتيبها المخبوء بالدماغ، ومع انتشار عمليات نقل القلب بل وإمكان العيش بقلب صناعي بدون تأثر الشخصية وفقدان التمييز على الإطلاق، بينما لا يوجد في المصطلح الطبي إلى اليوم شيء اسمه نقل

الدماغ، ولو حدث مستقبلا فلن يكون إلا تأكيدا لما سبق وقرره القرآن الكريم لتتجلى البينة على التنزيل.

الإعجاز العلمي للقرآن

السؤال (٤٠٤٢٤): ما حكم ما يسمى بالإعجاز العلمي للقرآن؟، وأعني بذلك تفسير آيات القرآن الكريم بقوانين العلوم الطبيعية (كالكيمياء، والطب، والجيولوجيا، والفلك، ونحوها)، هل هو جائز بإطلاق؟ أم ممنوع بإغلاق؟ أم هناك ضوابط وقواعد؟.

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

لقد ادخر القرآن الكريم كثيراً من الآيات للأجيال في عبارات معلومة الألفاظ، لكن الكيفيات والحقائق لا تتجلى إلا حيناً بعد حين، يقول تعالى: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ" (ص ٨٧و٨٨)، وقد فسر الطبري معنى الحين بقوله: (فلا قول فيه أصح من أن يطلق كما أطلقه الله من غير حصر ذلك على وقت دون وقت)، فلكل نبأ في القرآن زمن يتحقق فيه، فإذا تجلى الحدث ماثلا للعيان أشرقت المعاني، وتطابقت دلالات الألفاظ والتراكيب مع الحقائق، وهكذا تتجدد معجزة القرآن على طول الزمان، يقول العلي القدير: "وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ

مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"[الأنعام: ٦٦-٦٧]، ونقل ابن كثير عن ابن عباس –رضي الله عنهما- تفسيره للمستقر بقوله: (لكل نبأ حقيقة أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين)، وقد تردد هذا الوعد كثيرا في القرآن الكريم بأساليب متعددة كما في قوله –تعالى- "ثم إن علينا بيانه" [القيامة: ١٩]، وقوله: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" [فصلت: ٥٣]، وقوله: "وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها" [النمل: ٩٣]، قال ابن حجر: (ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه، وفي بلاغته، وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه)، قال مُحَمَّد رشيد رضا: (ومن دلائل إعجاز القرآن أنه يبين الحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيرون في فهمها والاستفادة منها مجملة، وإن كان فهم ما وراءها من التفصيل الذي يعلمه ولا يعلمونه يتوقف على ترقي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك)، وقال جوهري: (أما قولك كيف عميت هذه الحقائق على كثير من أسلافنا؟، فاعلم أن الله هو الذي قال: "سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ"، وقال: "وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا"، إن الله لا يخلق الأمور إلا في أوقاتها المناسبة، وهذا الزمان هو أنسب الأزمنة)، "والمدار على الفهم، والفهم في كل زمان بحسبه، وهذا زمان انكشاف بعض الحقائق). وفي قوله –تعالى-: "سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ" [الأنبياء: ٣٧]، قال ابن عاشور: (وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين)، وهي كما قال الرازي: (أدلة التوحيد وصدق الرسول – ﷺ- ولذلك قال –سبحانه-:"فَلَا

تَسْتَعْجِلُونِ" أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها)، واستعجال المنكرين يعني كما قال الشيخ طنطاوي: (استبعاد ما جاء في هذه الآيات من الأمور العلمية التي أوضحها علماء العصر الحاضر، فهم يستبعدونها طبعاً؛ لأنهم لا يعقلونها، فقال الله –تعالى– لا تستبعدوا أيها الناس "سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ"، فإذا لم تفهمها أمم سابقة.. سيعرفها من بعدهم، فقد ادخرنا هذه الأمور لأمم ستأتي؛ لتكون لهم آية علمية على صدقك فتكون الآيات دائما متجددة)، قال مُحَمَّد رشيد: (والكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون والمتكلمون، فإن كان ذلك قد وفى بحاجة (تلك) الأزمنة.. فهو لا يفي بحاجة هذا الزمان، إذ هي داعية إلى قول أجمع، وبيان أوسع، وبرهان أنصع في أسلوب أجذب للقلب، وأخلب للب، وأصغى للأسماع، وأدنى إلى الإقناع)، هذا ما قاله المحققون، ولكنه لا يعني تعريض كتاب الله للمؤاخذة بسوء فهم للنصوص، وتحريفها عن دلالتها لتلتقي مع حقيقة علمية، أو الانتصار لفرضية لم تؤيدها الوقائع بعد لتلتقي مع دلالة نصية أو استنباطية، تلك هي أهم أصول التحقيق، والله أعلم.

البرنامج الغذائي للرسول ﷺ

السؤال (٤٠٤٦٨): بسم الله الرحمن الرحيم.

ما صحة ما نقله الدكتور عبد الباسط مُحَمَّد السيد (عضو هيئة الإعجاز العلمي، في كتابه التداوي بالأعشاب والطب النبوي)، أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– كان: يفطر على العسل مخلوطاً مع الماء، ثم في وقت الضحى كان يأكل سبع تمرات مع اللبن، وفي الظهر كسرة خبز شعير مع الخل، وبعد العصر جزراً مع عود من البقدونس، وكان عشاؤه اللبن الرائب مع كسرة الشعير، وكان ينهى عن إدخال طعام في طعام، وكان يأكل الثريد مرة كل شهر، وكان يقول سيد الطعام الثريد، وكان يمشي بعد العشاء مقدار البقرة وآل عمران (أرجو ذكر المراجع).

الجواب:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

أفاد المسئولون بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة أن الدكتور عبد الباسط مُحَمَّد السيد ليس عضوا في هيئة الإعجاز العلمي، ولا في أي مجلس من مجالسها الرسمية، وأنه فقط من المتعاملين مع الهيئة مثل غيره، وأن كتابه التداوي بالأعشاب والطب النبوي لم يخضع لفحص شرعي وعلمي من قبل الهيئة، وكل ما ورد فيه إنما هو على مسئولية كاتبه، وأفاد المختص في الهيئة بعلم الحديث أن الرواية الواردة في السؤال لم ترد في الكتب الستة ولا المسانيد المعروفة،

والأظهر أن فيها نكارة؛ لأنه لم يؤثر عن النبي مُحَمَّد -ﷺ- أنه استمر على طريقة واحدة في طعامه أو لباسه، وأشكر السائل على التنبيه للكتاب وما ورد فيه. وأسأل الله تعالى أن يهدينا جميعا إلى سواء السبيل.

من القرآن ما يفسره الزمان

السؤال (٤٣٥٤٣): السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هل وردت أية إشارات في القرآن الكريم إلى الاختراعات الحديثة؟ أو في أحاديث الرسول الكريم -ﷺ-؟ أرجو أن تفيدونا، وجزاكم الله عنا وعن كل المسلمين خيراً.

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن القرآن الكريم كتاب هداية إلى الإيمان بالله تعالى وليس صنعة بشرية تغرض إلى الاختراع والإبداع التقني، ومهمته تصحيح اعتقادات دخيلة على منهج رسل الله -عليهم السلام- في التأكيد على وحدانيته، هذا هو الغرض الرئيس من الدعوة إلى التطلع في الكون نحو بينات صدق القرآن ودلائل عظمة الله ووحدانيته والتي يبلغ بها الإنسان درجة اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يونس ١٠١، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ولكن الدعوة إلى التطلع في الكون والتأمل وإعمال الفكر والاستنباط قد وضعت الأساس للمنهج التجريبي فكان من ثمرتها أن حفزت الهمم وشحذت العقول لبناء صرح حضارة عالمية مازالت مفردات مصطلحاتها مستعملة إلى اليوم في علوم كالفلك والجبر والكيمياء في الوقت الذي كانت أوروبا تتخبط فيه في ظلمات الجهل والوهم.

ولم تكن البيئة التي نزل فيها الوحي مهيأة لتلقي حقائق لم تتحقق منها البشرية إلا بعد عصر التنزيل بقرون، ولذا كانت الإشارات العلمية في الحديث النبوي محدودة بينما فاض بها القرآن الكريم، وادخرت تلك الإشارات العلمية لأجيال قادمة تعاين حقائقها بينة على الوحي وتأييدا لرسالة التوحيد، وقد شفعت بوعد جازم نراه يتحقق اليوم، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتّىَ يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، وإسناد الرؤية للمؤمنين وإلى غيرهم يعني أن الوعد متحقق سواء اكتشفوا هم الحقيقة أم سبقهم إليها غيرهم، فلا مجال إذن للسؤال الذي يخلط بين التدليل على التنزيل عند تجلي الحقيقة والتبشير بها قبل اكتشافها في الواقع: لماذا ينتظر المسلمون غيرهم ليكتشفوا هم الحقائق العلمية ثم يدركون إشارة نصوص الوحي إليها بعد ذلك؟، ومع ذلك يمكن استلهام النصوص والاسترشاد بقواطع الدلالات للتبشير بالحقيقة التي لم يقم عليها دليل بعد.

وسأحقق رغبتك في السبق التقني بمثال؛ في الوقت الذي نبحث فيه في أيام الشتاء عن وقود التدفئة يفيض القرآن بالحديث عن حقيقة وجودنا فوق قشرة رقيقة عائمة فوق دوامات جبارة من الصهير الملتهب ومخزون لا ينضب من الطاقة تحت أقدامنا مباشرة، ألا ترى أن مشكلة الطاقة في العالم قد حلت بشكل جذري!؛ يمكن بلوغ الأتون الملتهب بأنبوب معدني ممتلئ بالماء في مناطق ذات عمق يسير كما في منطقة المدينة المنورة وبتحوله إلى بخار يمكن إنتاج كهرباء مجاناً تصلح للتخزين وتكفي لتحول جزيرة العرب إلى جنة خضراء، ولكن إن صح هذا فهو استلهام وسيبقي الدليل على التنزيل هو سبق القرآن إلى الحقيقة قبل تجليها عند اكتشافها؛ على الأقل هذا ما أراه.

ومن الإشارات إلى معالم عصر التقنية التبشير بوسائل نقل تماثل الدواب المعتاد استخدامها زمن التنزيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاّ بِشِقّ الأنفُسِ إِنّ رَبّكُمْ لَرَؤُوفٌ رّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٥-٩]، فالشاهد قوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وذلك في معرض الحديث عن وسائل نقل معتادة ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، وفعل ﴿يَخْلُقُ﴾ مضارع يدل على التجدد مما لا يجعل حدًا لما ستكشفه الأيام من وسائل نقل، ولكن عندما تسترخي على كرسيك اليوم في سيارة أو باخرة أو طائرة تذكر أنك تجلس فوق دليل يشهد للقرآن بالوحي.

قال المراغي: "﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ مما يهدي إليه العلم وتستنبطه العقول كالقُطُر البرية والبحرية والطائرات التي تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر والمطاود الهوائية التي تسير في الجو والغواصات التي تجري تحت الماء؛ إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير في الركوب والزينة" .

وقال ابن عاشور: "الذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه..، وارتال السكك الحديدية والسيارات.. ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفّى..، فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها، وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكلّ من نعمته" .

وقال الشنقيطي: "قوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية كالطائرات والقطارات والسيارات، ويؤيد ذلك إشارة النبي r إلى ذلك، في

الحديث الصحيح قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه.. عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: قال رسول الله r "والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها".. الحديث، ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح . قوله ﷺ: "ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها" فإنه قسم من النبي –ﷺ– أنه ستترك الإبل فلا يسعى عليها، وهذا مُشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة، وفي هذا الحديث معجزة عظمى تدل على صحة نبوته –صلى الله عليه وسلم– وإن كانت معجزاته صلوات الله عليه وسلامه أكثر من أن تحصر" ، وقال الألوسي: "والعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد.. فما لا تعلمون على ظاهره" ، وقال الزركشي: "أما الموصوفات.. فإنك تبدأ بالأفضل فتقول قام الأمير ونائبه وكاتبه.. فقدم الخيل لأنها أحمد وأفضل من البغال وقدم البغال على الحمير لذلك أيضا" .

تريد أن تداعب خيالك وتستشرف آفاقا لم يبلغها عصر التقنية بعد؛ تأمل قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ. وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ. فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ﴾ [الإنشقاق:١٦-٢١]، سأدع خيالي ينطلق معك ويصنع رؤيا تستنطق المجهول، إن تلك الظواهر الليلية معاينة معهودة؛ الشفق فبزوغ الأجرام فالبدر أنصع أحوال بهاء القمر، وتستشعر مع تتابع تلك الظواهر حركة دل عليها الترتيب، فالشفق عند غروب الشمس وعندما يجن الليل ترى الأجرام تملأ صفحة الليل قبل أن يلفتك عنها بهاء القمر، ولكن ماذا يعقب الليل؟ إنها

الشمس ساطعةً أبهى من القمر؛ هكذا إذن ستتجلى حقيقة يؤكدها القرآن في تشبيه ضمني بالشمس في وضح النهار: ﴿لَتَرْكَبُنّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾، و(الركوب) يلزمه الحمل والسفر والانتقال والهجرة كما في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٧٩و٨٠]، والمذهل أن الشكل المستدير المماثل للطبق هو فعلا الذي يحقق الاستقرار في الفضاء حيث تنعدم الجاذبية فيمكن استعادتها بالتدوير، وتصميم أول مدينة فضائية بهيئة طبق يدور؛ مساكنه ومزارعه في الأطراف وأبوابه يُرتقى إليها نحو السقف العاكس المحمي من الوهج بأغطية معدنية، وينعم سكانه بالرفاهية بدون منغصات مثل القوارض والأوبئة.

تريد أن تعترض، فهذا ما أردت أن أبلغه معك؛ اكتفِ إذن بمعاينة دلائل الوحي التي تحققت في زمانك ودع القادمين يعاينون ما لم تكشفه الأيام لأحد بعد، أم ترغب في التمتع بعجيبة أذهلت أساطين البيان وأخذت بألباب المتأملين على مر الزمان؛ فأطلق لخيالك إذن العنان ليتصور عالمًا من الرفاهية والزخرف لا تحتمله الأرض وهو أشبه أن يتحقق في مدن الفضاء منصتًا لقول العلي القدير: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لّيَتّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبّكَ خَيْرٌ مّمّا يَجْمَعُونَ. وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً لّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مّن فِضّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتّكِئُونَ. وَزُخْرُفاً وَإِن كُلّ ذَلِكَ لَمّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبّكَ

لِلْمُتّقِينَ﴾ [الزحرف:٣٢-٣٥]، والأَثَر على إِثْر القرآن الكريم، فقد جاء الخبر مبشرًا بحضارة فضائية وانتشار الإسلام حتى يبلغ أجرام السماء؛ فعن أبي أمامة أن رسول الله r قال: "والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم" .

ويفيض القرآن بمثل هذا التبشير الذي تحقق منه إلى اليوم كثير فأصبح بينة على التنزيل، دعني أشركك معي في التفكير؛ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مّا تُمْنُونَ. أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الْخَالِقُونَ. نَحْنُ قَدّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَىَ أَن نّبَدّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦١]؛ ماذا يعني التبشير بتقنية تخليق الإنسان من غير المني في ظروف غير معهودة بطريقة غير مسبوقة وإنشاء أجيال بشرية مبدلة ذات صفات مغايرة وإن ماثلت البشر المعهودين؟، لا تستغرب السؤال المتسم بالخيال الجامح متأثرا بالثورة العلمية التي نعيشها اليوم في مجال الوراثة واستبدال الصفات بأفضل منها وأبحاث تخليق الإنسان، ألم أقل لك سابقًا إن هناك فارقاً بين الإشارة العلمية التي تحققت بالفعل واستقر معناها بشهادة الواقع وبين الخيال المنطلق الذي لم يقم عليه دليل بعد!.

والحديث في كتاب الله عن الحضارات التي سادت على الأرض وبادت قبل نزوله ورد بصيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرْضِ﴾ [هود:٢٠]، ولم يتواجد أحد منهم بالفعل قبل عصر الفضاء إلا في الأرض، ولكن مع الالتفات نحو حضارات المستقبل المخاطبين بالقرآن إلى قيام الساعة لم يُحصر تواجدهم في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرْضِ وَلاَ

فِي السّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٢٢]، وتلك الإضافة المبهرة المميزة لحضارات المستقبل ﴿وَلاَ فِي السّمَآءِ﴾ قد كشفت معناها الثورة العلمية المحمومة التي نعيشها اليوم في عصر الفضاء لتشهد بأن هذا القرآن وحي من عند رب الأرض والسماء؛ وإلا من أين لمحمد r منذ قرون وهو الأمي في أمة أمية هذا النبأ قبل عصر الفضاء!، هكذا تتجلى اليوم وتشع بأنوار اليقين بينات القرآن الكريم، يقول العلي القدير: ﴿وَكَذّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقّ قُل لّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لّكُلّ نَبَإٍ مّسْتَقَرّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٦٦و٦٧].

ما الحكمة من خلق الكون؟

السؤال (٤٥٥٣٤): بسم الله الرحمن الرحيم.

السؤال غريب نوعاً ما، ولكن لا حياء في الدين، ومن حبي لخالقي – سبحانه– تجرأت لكي يطمئن قلبي، السؤال: ما حاجة الله –سبحانه وتعالى– في أن يخلق الكون؟ ولماذا المسابقة التي نحن نعيشها وهو الله القادر على كل شيء، إنس وجن وعبادة، ثم حساب وثواب أو عقاب؟ ما حكمته سبحانه من هذا كله؟. وشكرًا لكم.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

يُولد الإنسان مفطورًا على جملة تساؤلات: من أنا؟ وكيف جئت؟ وإلى أين المصير؟ ولماذا أبدع الله كل هذا؟، وتظل تلك التساؤلات تجول في النفس، إلاَّ أن يسترها الإلف وتطمسها التقاليد والعادات، أما السؤال: كيف؟ فالسبيل لمعرفة جوابه وبلوغ الاطمئنان هو التطلع والنظر بتجرد إلى المخلوقات، ذلك هو طريق العلم وبه يَسْلَم الإنسان من الأوهام والخرافات، وأما السؤال: لماذا؟ وكل ما يتعلق بالخالق فلا سبيل لمعرفة جوابه بيقين، سوى الوحي الصادق المؤيد بالبينة، أما الاجتهاد المجرد فلا يسلم من الزلل ولا يصلح كدليل، فقد أدى التسليم بالمعتقد بمجرد الادعاء إلى الخلط بين صفات الخالق والمخلوق، فشاعت في تاريخ البشرية المنحوتات، وعُبدت خلائق كالأبقار وأجرام السماوات، وجُعل الخالق بشراً يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق.

وعندما تعتمل إذن في نفسك التساؤلات فابتهج؛ لأنها علامة على أنك حي مطلبك الدليل لم يأسرك التقليد، فلم تنلك الضلالات التي أصابت الكثير من أدعياء الفطنة، وتحقيق الاطمئنان وراحة البال مضمون على ألا تغفل عن معالم الطريق واتباع قواعد السير منذ البَدء وعمادها التمييز بين صفات الخالق والمخلوق، أما الدليل العلمي القائم على التطلع إلى المخلوقات فهو ينصر القرآن، ويقدم البينة على أنه الوحي المحفوظ بلا اختلاف في المحتوى أو تحريف في المضمون أو التقيد بزمن أو بيئة المكلفين، ولا يوجد اليوم أي كتاب يُنسب للوحي يداني القرآن في سلامة المحتوى وأصالة المضمون وفطرية التشريع والتطابق التام مع مفاخر العلم، ذلك هو مرجعك الوثيق في كل أمر، ولك أن تدعه يجيبك عن كل ما يحيرك وأنت واثق مطمئن.

والتساؤل: لماذا خلق الله العالم والإنسان؟، أو وفق تعبير القرآن: لماذا (خَلَق السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)؟ و(خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ؟، جوابه واحد، وهو كما يقول العلي القدير: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) [هود ٧ والملك ٢]، فالعالم ليس إلا ساحة النظر والتأمل والاستدلال وتجليات القدرة الطليقة والمشيئة النافذة أمام ذوي الأبصار، وللسيد أن يتفضل ويبين لعبده قبل أن يسأل: كيف؟، ولكن هل يملك العبد أن يراجع سيده الحر المشيئة ويسأل: لماذا؟؛ في الحقيقة لا يملك العبد سوى طاعة من يملك الأمر، فما بالك بمن يملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير!، يقول العلي القدير: (لاَ يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [الأنبياء:٢٣]، وفي بيان الوظيفة التي قامت من أجلها السماوات العامرة بالساجدين المستورين، والأرض الزاخرة بدعوة المرسلين يقول تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ. مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) [الذاريات:٥٦-٥٧]، وبهذا يعفيك القرآن من التشاغل عن التوجه لمن خضع لمشيئته كل شيء، والمستحق وحده الحمد، يقول سبحانه: (ذَلِكُمُ اللهُ رَبّكُمْ لآ إِلَـٰهَ إِلاّ هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [الأنعام ١٠٢]. والله تعالى أعلم.

الحكمة في جعل السماوات والأراضين سبعًا

السؤال (٤٧٧٧٩): السلام عليكم ورحمة الله. وبعد:

ما حكمة الله –تعالى– أو الإعجاز العلمي في العدد سبعة سماوات . سبعة أراضين. إلخ.. وجزاكم الله عنا خير الجزاء؟.

الجواب:

حكمة بالغة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

إجابةً على السؤال: ما حكمة الله تعالى أو الإعجاز العلمي في العدد سبعة مثل سبع سماوات؟ أقول مستعينًا بالله العلي القدير العزيز الحكيم، سائله تعالى التوفيق والرشاد:

إن ثمرة الوجود هي الإنسان المهَيَّأ للتطلع حوله ليُعاين في كل شيء دلالة تدله على مضمون مستور، وإذا نزع الإنسان حُجُب الإلف والغفلة فسيرى كل شيء مُظهرًا لوحدانية الله وتجسيدًا لصفات الكمال والجلال والتنزيه فيقشعر بدنه ويحنو وجدانه ويستقر جنانه ويخبت في ابتهال ساجدًا لله في يقين، فالجمادات لن تبدو بعين البصيرة كذلك وإنما حشود تُسَبِّح كُلٌّ يميزه إيقاع، وتلك الرؤية الوجدانية ليست وهمية؛ لأن كل شيء تتحرك لبناته بجِدٍّ وعَجَلٍ وفق تقدير يدفع الصدفة ويَئِن حقيقةً مترنمًا بجلال الله كأنما خُلِقَ من عَجَل، هكذا يرى البصير في كل شيء آية تشهد لله بالوحدانية والاقتدار والعظمة،

والعجيب أن وحدة الإنشاد تلك هي آخر صيحة في الفيزياء تصف الكون كوتر واحد يُصدر كافة النغمات في إيقاعات منتظمة بلا نشاز.

وإن شئت فأنصت لإنشاد تردده جنبات الكون ومناجاة تشدو لتستحث الغافلين في روائع يفيض بها القرآن تأخذ بالوجدان وتهز الكيان؛ يقول تعالى: (سَبّحَ للهِ مَا فِي السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[الحديد:١].

ويقول تعالى: (يُسَبّحُ لِلهِ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[الجمعة:١].

ويقول تعالى: (يُسَبّحُ لِلهِ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[التغابن:١].

ولا يسعك عند تبصر حقيقة كل شيء إلا أن تشارك الحشود في التسبيح على بصيرة في هيبةٍ وإجلال.

والمدهش أن يُنزِل القرآن كل شيء في الوجود منزلة العقلاء المسبحين مما حيَّر أعلام المفسرين، قال الطبري: (يعني تعالى ذكره.. أن كلّ ما دونه من خلقه يسبحه تعظيمًا له، وإقرارًا بربوبيته، وإذعانًا لطاعته، كما قال جلّ ثناؤه: (تُسَبّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقُهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإسراء:٤٤] (تفسير الطبري ج٢٧/ص٢١٥).

وقال ابن الجوزي: (فأما تسبيح الحيوان الناطق فمعلوم، وتسبيح الحيوان غير الناطق فجائز أن يكون بصوته وجائز أن يكون بدلالته على صانعه، وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال؛ أحدها أنه تسبيح لا يعلمه إلا الله، والثاني أنه

خضوعه وخشوعه لله، والثالث أنه دلالته على صانعه فيوجب ذلك تسبيح مُبصره، فإن قلنا إنه تسبيح حقيقةً كان قوله: (وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ). لجميع الخلق، وإن قلنا إنه دلالته على صانعه كان الخطاب للكفار لأنهم لا يستدلون) (تفسير زاد المسير – ابن الجوزي ج٥/ص٤٠).

وكما ينطق الوجود بجلال الله كذلك يفيض القرآن بدلائل قدرته ووحدانيته، يقول تعالى:

(لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَىَ جَبَلٍ لّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مّتَصَدّعًا مّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ)[الحشر:٢١].

وهنا أنزل الجماد كذلك منزلة العقلاء الخاشعين هيبةً أمام عظمة الله وجعله مثلًا ليتفطن مغزاه المتأملون، وبهذا بلغ التمثيل في القرآن غاية الإحكام والبيان لينبه الغافلين ويستحث النابهين، قال ابن كثير: (فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله U فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه) (تفسير ابن كثير ج٤/ص٣٤٤).

قال النسفي: (جائز أن يكون هذا تمثيلاً كما في قوله تعالى: (إِنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا...)[الأحزاب: ٧٢].

ويدل عليه قوله: (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ).

وهي إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل) (تفسير النسفي ج٤/ص٢٣٤).

وقال البيضاوي: (تمثيل وتخييل.. ولذلك عقبه بقوله: (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ). (تفسير البيضاوي ج٥/ص٣٢٣).

وقال السمرقندي: (هذا على وجه المثل، يعني: لو كان الجبل له تمييز لتصدع من خشية الله) (تفسير السمرقندي ج٣/ص٤٠٩).

وقال الثعالبي: (ضرب الله سبحانه هذا المثل ليتفكر فيه العاقل) (تفسير الثعالبي ج٤/ص٢٨٨).

وعن القرطبي: (أي إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده) (تفسير القرطبي ج١٨/ص٤٤).

قال القفال: (فإذا تقرر أنه تعالى يضرب الأمثال وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل وجب حمله عليه) (تفسير القرطبي ج١٤/ص٢٥٦).

وهكذا حاكت ألفاظ القرآن دلالات تفوق بكثير أقصى ما يمكن أن يبلغه فرسان البلاغة وأساطين البيان، فاستولى على وجدانهم وأخذ بألبابهم منذ زمن التنزيل، وأذعن له غلاظ المكابرين وصاروا أتباعًا مناصرين قبل أن يكشف أحد أدلة ما فيه من تشريع يسمو بالإنسان إلى سواء الفطرة أو علم بالتكوين يشهد بالتنزيل؛ عن الزركشي: (قال الخطابي: وقلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم، وهو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن

الروعة والمهابة في حال أخرى..، قال الله تعالى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَىَ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مّتَصَدّعًا مّنْ خَشْيَةِ اللهِ). وقال تعالى: (اللهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مّتَشَابِهًا مّثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ) الآية.

قلت: ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي -ﷺ- للطور حتى انتهى إلى قوله: (إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِع). قال: "فكأنما صدع قلبي" أخرجه أحمد (١٦٧٦٢). وفى لفظ: كاد قلبي يطير أخرجه البخاري (٤٨٥٤)، فأسلم.

وفى أثر آخر أن عمر لما سمع سورة طه أسلم أخرجه الدارقطني ١/١٢٣ ، والحاكم٤/٦٥ والبيهقي ١/٨٨ وغير ذلك) (البرهان في علوم القرآن – الزركشي ج٢/ص١٠٦).

وبالمِثْلِ تتساوق الأرقام في القرآن مع الواقع كما الألفاظ وترسم ظلالاً وصورًا فتتجاوز مألوف دلالاتها، فالكون بناء ممتد إلى حيث يكل النظر، لبناته شديدة الترابط لا تتجاوز سبعة آفاق تمامًا كنُطُق بنية الذرة، والشمس والقمر من معالم فضاء الكواكب التي يسبح معها بيتنا المعمور المأهول وحده بينها بذوي الإدراك، وكان حد معرفة الشعوب قبل عصر المناظير هو خمسة كواكب معهما تحت سقف تناثرت عليه النجوم تطوف حول الأرض الساكنة كما يعدها بمجرد النظر القاطنون، فظنوا مداراتها هي "السماوات السبع"، لكن الكواكب ليست إلا معالم في الفضاء الأدنى تُطبق عليها بروج النجوم في مستويات متزايدة العلو؛ التجمع المحلي للنجوم فالأعظم ثم المجرة فالتجمع المحلي للمجرات فالأعظم ثم ما يدعى بالكوازارات، وطبيعة التكوين الطبقي للكون تنعكس في الذرة كأصغر لبنة فلا تزيد مستويات مداراتها كذلك عن

سبع، والكل في حركة دائبة لا يمل من التسبيح، وبذا اكتسب العدد سبعة معنى إضافيًّا يتجاوز دلالة الإحصاء، فأفاد بلوغ الغاية حتى أفاد في مواضع معنى الاكتمال أو التكثير واقترن بوحدة طابع التكوين والانتظام.

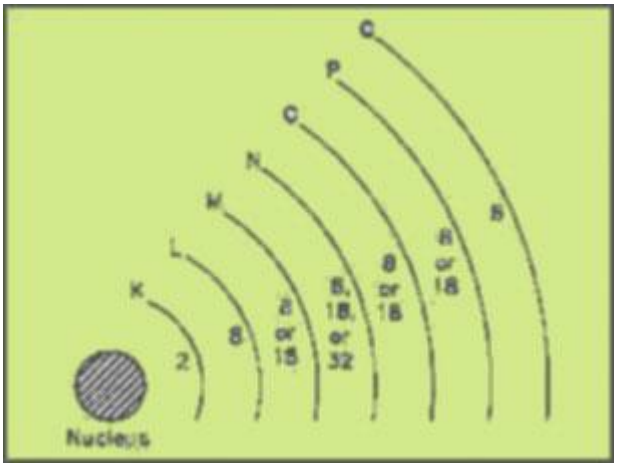

لا تزيد مستويات الطاقة حول نواة الذرة عن سبعة مستويات في غاية الانتظام وفي قوله تعالى: (هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مّا فِي الأرْضِ جَمِيعًا ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[البقرة:٢٩].

قال أبو حيان: (إنما خلق السماوات سبعًا لأن السبعة والسبعين فيه دلالة على تضاعيف القوة والشدة كأنه ضوعف سبع مرات.. لما في ذكرها من دليل المضاعفة؛ قال تعالى: (خُذُوهُ فَغُلّوهُ* ثُمّ الْجَحِيمَ صَلّوهُ* ثُمّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ* إِنّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ)[الحاقة:٣٠- ٣٣].

وقال تعالى: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [التوبة:٨٠].

والسبعة تذكر في جلائل الأمور؛ الأيام سبعة، والسماوات سبع، و(نُطُق) الأرض سبع، و(السَّيَّارات).. سبعة: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة والشمس والقمر. والبحار سبعة، وأبواب جهنم سبعة) (تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج١ ص٢٨٢).

وورد عن الأعلام أن السماء التي وردت في النظم بعد تشكيل الأرض ليست كل ما يعلوها من الكون وإنما دخان خرج منها عند بدء تكوينها فشكل طبقات الجو، وهو ما يوافق الرؤية العلمية الحديثة أنها كانت في غاية الالتهاب وما زال باطنها كذلك يمور في دوامات هائلة تحمينا منها طبقة رقيقة مثل قشرة البيضة، نقل الماوردي عنهم أنها: (الدخان الذي جعله الله للأرض سماء) (تفسير النكت والعيون للماوردي ج١ص٩٢).

وكأنهم فسروا قوله تعالى: (ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ). بعد خلق الأرض بقوله: (ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ* فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ..) [فصلت:١١،١٢].

وأجاز ابن عاشور رأيًا يحفظ للأداة "ثم" أصل دلالتها على ترتيب الأحداث ويدفع الخلاف حول أسبقية التكوين؛ الأرض أم السماء؟ بالتمييز بين السماء التي تسبق الأرض في النَّظم والتكوين والسماء التي تلحق بها، قال ابن عاشور (رحمهم الله جميعًا): (والسماء إن أريد بها الجو المحيط بالكرة الأرضية فهو تابع لها متأخر عن خلقها، وإن أريد بها (محل الأجرام السماوية فهي).. أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقًا، وقد يكون كل من الاحتمالين ملاحظًا في مواضع

من القرآن غير الملاحظ فيها الاحتمال الآخر) (تفسير التحرير والتنوير ج١ص٣٨٤). وهذا يؤكد تباين دلالة لفظ "السماء" حسب السياق منها ما نراه وما هو غيب من ذلك البناء المحيط بنا.

وفي قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ..)[المؤمنون:١٧]. ورد عن الأعلام تفسيرها بمسارات الأجرام السماوية التي تعلونا تارةً وبالسماوات السبع تارةً أخرى، كما في قوله تعالى: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا* وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهّاجًا)[النبأ:١٢،١٣].

وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُورًا وَجَعَلَ الشّمْسَ سِرَاجًا)[نوح:١٥، ١٦]. قال ابن عاشور: (قد عدَّ الله تعالى- السماوات (العُلَى كذلك) سبعًا، وهو أعلم بها وبالمراد منها، إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات (محل) الأجرام العلوية العظيمة.. ويدل على ذلك أمور:

أحدها أن السماوات ذكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض.. فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي.. ثانيها أنها ذكرت مع الأرض من حيث أنها أدلة على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها تلك الأجرام المشاهدة) (تفسير التحرير والتنوير ج١ص٣٨٥).

والقرآن يدعو في مواضع عديدة إلى النظر في السماوات كما النظر في الأرض ومشاهدة دلائل الوحدانية والاقتدار، وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوَاْ أَنّ السّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا..)[الأنبياء:٣٠]. فيه دلالة على وحدة الأصل في النشأة والتكوين بينة على وحدانية الله وقدرته، كما قال غير واحد

من المحققين، والمعلوم اليوم أن كل الأجرام تتكون من نفس المواد، وأما وحدة النشأة فهي محصلة جهود المختصين، وفي الحقيقة يذهل اليوم كل عارف بخفايا التكوين أمام تلك الأوصاف المبهرة في القرآن والمؤيدة لرسالته.

إن الرقم "واحد" في كل اللغات يعني وحدة الكينونة كاللفظ "أحد" بلا تجزئة أو اشتراك بعكس الرقم "اثنين"، وأما "الثلاثة" أو كل ما تجاوز المفرد والمثنى فهو بداهةً في قواعد لغات التخاطب "جمع"، ولذا تثليث الرقم "واحد" تناقض صارخ يجعل المفرد والجمع سواء فيناطح المسلمات الراسخة كالجبال الشوامخ، وأما الرقم "سبعة" فبينة على العلم بخفايا التكوين تشهد بالوحي للقرآن الكريم، وهو بصمة في كيان كل شيء تعلن عن الوحدة والانتظام في طبيعة التكوين من أصغر لبنة لأكبر تكوين، فتشهد لكل يقظ فطين بوحدانية الله وقدرته، وهكذا تسطع حكمة بالغة في حديث القرآن كما في الكون المنظور لم تتخلف عن بيانها الأرقام مشاركةً الحشود في التسبيح، يقول العلي القدير: (أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ١٨٥].

وجود كائنات في الكون غير الإنسان

السؤال (٥٠٢٩٩): هل هناك أحد غير الإنسان في الكون؟ مع ذكر الدليل بالقرآن الكريم غير الجن والملائكة، وهذا السؤال موجه للإعجاز العلمي.

الجواب:

هل توجد حضارات خارج كوكب الأرض؟

لقد مد الإنسان بصره كرتين في معركته أمام المجهول عندما خذله النظر المجرد عن كسر الحجب حوله فاستخدم في الأولى المراصد البصرية وفي الثانية أعانته المراصد الراديوية التي تستشعر الموجات اللاسلكية على أن يكتشف أجراما يتزايد انحسارها مع البعد حتى عجز بصره عن الإدراك عند بلوغه أقصى انحسار، والمختصون يقولون إنه كلما نظرت أبعد كلما توغلت نحو الماضي الأبعد لتنعدم الرؤية عند نقطة البَدء، والنتيجة بناء مذهل في الإبداع والتكوين مترابط الأركان رغم عظمة الاتساع موحد التصميم محدد القصد منذ البَدء متعدد الطوابق ملاطه طرائق مقدرة وحبك بلا فطور وإن أسميناه فضاء ولبناته بروج متزايدة التكوين؛ تجمع كوكبي حول الشمس ثم التجمع المحلي للنجوم فالأعظم ثم المجرة فالتجمع المحلي للمجرات فالأعظم ثم الكوازارات، وهكذا سيعاين نفس الانتظام في لبنات متزايدة العلو والتكوين كل من يتطلع من أي كوكب مأهول في الكون، والمدهش أن يسبق القرآن مسيرة العلم بقرون ويتفرد عن المدونات الأسبق بوصف الكون بنفس الأوصاف ويفصلها بلا تشويه مما

ينفي عنه شبهة النقل ويقطع بصدق رسالته في الدعوة إلى وحدانية الله بلا شريك أو ولد، وفي وصف البناء الطبقي الشديد الترابط للكون الممكن النظر رغم عظمة الاتساع يقول تعالى: "أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُوراً وَجَعَلَ الشّمْسَ سِرَاجاً" نوح ١٥و١٦، ويقول تعالى: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهّاجاً النبأ ١٢و١٣، قال ابن عاشور: (قد عدَّ الله تعالى.. السماوات سبعاً وهو أعلم بها وبالمراد منها، إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات (آفاق) الأجرام العلوية العظيمة..، ويدل على ذلك أمور: أحدها أن السماوات ذكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض.. فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي..، ثانيها أنها ذكرت مع الأرض من حيث أنها أدلة على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها تلك الأجرام المشاهدة" ، والتثنية من مآثر القرآن في تأكيد النبأ مع مزيد التفصيل، يقول تعالى: "أَفَلَمْ يَنظُرُوَاْ إِلَى السّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ" ق ٦، ويقول تعالى: "الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مّا تَرَىَ فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىَ مِن فُطُورٍ. ثُمّ ارجِعِ البَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ" الملك ٣و٤.

وبيتنا الآهل أو أرضنا المعمورة بالمؤهلين للتفكر دون سواها في مجموعة كواكب ليست إذن سوى ثمرة عنب ناضجة من فرع يشترك مع غيره في فرع أكبر من أكبر يفيض بالعناقيد؛ وشجرة العنب لا تنتج بالقطع ثمرة عنب واحدة، وقد لا تستشعر نملة سوى ثمرة العنب التي تلمسها لكن إدراك وجود ثمار مماثلة لا

يغيب عن أصحاب الفكر، وتصعب نشأة حياة على كوكب غير الأرض أقرب أو أبعد للشمس لكن احتمال تكرر موقعها وظروفها كبير، والبناء الهائل لا يتصور صنعه ليسكنه الخواء لأن كل شيء موجه لغرض حكيم، والقدرة الخلاقة التي مكنت الإنسان بالاستنتاج والتخطيط وأبدعت الذكاء في الأرض قادرة على إنجازه في الكون الفسيح العنقودي البناء، هكذا تَنَادى الباحثون بضرورة وجود حضارات عاقلة خارج كوكب الأرض Extraterrestrial intelligence (SETI) تحجبها المسافات الهائلة وحدية سرعة الانتقال، ومنذ أن وضع الإنسان قدمه على سطح القمر في ٢٠ يوليو عام ١٩٦٩ وأنجز الكثير من الانتصارات في كشف المجهول والتسابق قائم على قدم وساق بين مختلف فروع علم الفلك في ثورة محمومة للعثور على دليل مادي ملموس.

وتلمس ما يحقق سبق القرآن ويؤيد حدس العلماء من وجود حضارات قد يفوق بعضها بني آدم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىَ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء ٧٠، وللفطين أن يسأل متطلعاً للسماء: فأين القليل المفضلون على بني آدم أو أهل الأرض؟، وفي قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ" المؤمنون ١٧؛ لفظ (الخلق) يتسع ليدخل فيه المكلفون في ربوع الكون فيشمل نفي الغفلة معنى العلم بعمل المكلفين فوق معنى الرعاية لكل شيء خاصة لاقتران نفي الغفلة عن الذات العلية في كل النصوص بعمل المكلفين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة

٧٤و٨٥و١٤٠و١٤٩وآل عمران ٩٩، وقوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة ١٤٤، وقوله: ﴿وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ هود ١٢٣والنمل ٩٣، وقوله: ﴿وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام ١٣٢.

ويشي القرآن عند التأمل بشيوع مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والفكر والعبادة في الكون الرحيب، يقول تعالى: ﴿أَلاّ يَسْجُدُواْ للهِ الّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ النمل ٢٥، قال النسفي: " الخبء.. المخبوء" ، وقال البيضاوي: "وهو يعم.. النبات" ، خاصة لكثرة ورود فعل الإخراج في القرآن مقترنا بالنبات دالا على معنى الإنبات، وقال الطبري: "يعني بذلك يظهره" ، ويثور السؤال: فمن حرث وبذر في السماوات كما يحدث في الأرض وقام بالسقاية حتى خرج النبات يحمل الثمر؟، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِن دَآبّةٍ وَهُوَ عَلَىَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ الشورى ٢٩؛ كلمة (فيهما) لا يحتمل التأويل ويعني وجود أجناس من الدواب في السماوات كما في الأرض، ولا يمكن صرف لفظ (دابة) الدال على وجود أحياء متحركة في السماوات عن ظاهره سواء منها العاقل أو غير العاقل تدب على أسطح كواكبها كما في الأرض، ولا يمكن حمله على (الملائكة) للتمييز بين اللفظين في قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل ٤٩، والتعبير: ﴿وَهُوَ عَلَىَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ لا يمكن قصر دلالته على لقاء تلك الأجناس ببعضها البعض في غير عوالم الدنيا لأن الآخرة مشيئة حتمية الوقوع لا يدخلها احتمال مشروط، ومن يدريك لعل

طوائف هؤلاء المستورون الأبلغ مهارة قد جاءوا سابقا وسكنوا كوكب الأرض قبل أن يسكنه الإنس!، ويفيض القرآن بما يؤكد لك النبأ من وجود حضارات عاقلة متقدمة لا يحصيها العد خارج الأرض سبقتنا في معرفة الله وعبادته كما في قوله تعالى: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوّ وَالآصَالِ﴾ الرعد ١٥، وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ الأنبياء ١٩، وقوله: ﴿إِن كُلّ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتِي الرّحْمَنِ عَبْداً. لّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدّاً﴾ مريم ٩٣و٩٤، وهكذا يرد تعبير القرآن جامعاً يطابق الحقيقة الخفية بتلطف لا يلفت عن الأغراض الموجهة لعموم المخاطبين، ولا تجد اليوم كتابا ينسب للوحي يجول في كل ميادين العلم فلا يخالف الحقيقة بل يسبق حدس العلماء ويسجل الحقيقة سوى القرآن (زيادة).

شبهة حول قوله تعالى: "وأنزل لكم من الأنعام ..."

السؤال (٥٨٧٣٥): السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فيما يلي مقال نشر على أحد مواقع الإنترنت، يشكّك في القرآن وإعجازه، أرجو من فضيلتكم قراءته والرد عليه: قال أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الدكتور (استروخ) وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء، قال: لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على معادن الأرض وأبحاثاً معملية، ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو

الحديد، قدرات الحديد لها تكوين مميز، إن الإلكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد فهي محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية، ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض، ولا بد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها، قال تعالى: "وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ"[الحديد: ٢٥] المصدر (الأدلة المادية على وجود الله) لفضيلة الشيخ مُحَمَّد متولي الشعراوي، يتصور المسلمون بأن قرآنهم يحوي معجزات علمية حديثة، وهم في محاولتهم تلك يلوون عنق اللغة العربية ويجعلون القرآن ينطق بما لم يخطر على بال كاتبه، في مثالنا هذا حول المعجزة المزعومة في القرآن بأن الحديد أتى إلينا من الفضاء الخارجي نجد المحاولة الخائبة من المسلمين مفضوحة تماماً بلا ستر أو أستار، لأن القرآن نفسه ينقضها نقضاً واضحاً، تقول سورة الحديد: "وأنزلنا الحديد"، ويحاول مسلم هذا العصر أن يقول لنا بأن مقصد القرآن بأن الحديد أنزل من السماء ولم يتكون على الأرض، ولكني يجب أن أتوقف عند آية مشابهة وأفحصها هي الأخرى، تقول سورة الزمر الآية ٦: "وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج"، يقول ابن كثير في تفسير الآية: وقوله تعالى "وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج" أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام، ثمانية أزواج من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين.

إذاً من الواضح لنا تماماً بأن هذه الأنعام ليست إلا حيوانات: إبل، بقر، ضأن، معز. إذًا وجب علي الأيمان بأن "أنزلنا الحديد" تعني نزوله من الفضاء الخارجي إلى الأرض (مخالفاً كل تفاسير ثقات المفسرين للآية) يجب علي أن أؤمن بأن الإبل، البقر، الضأن، المعز كلهم قد هبطوا إلى أرضنا من الفضاء الخارجي أيضاً. لأن القرآن يقول: "وأنزل لكم". أو إذا قلت بأن معنى "وأنزل لكم من الأنعام"، هو خلق لكم من الأنعام. إذًا يجب أن أسلم بأن "أنزلنا الحديد" تعني أيضا خلقنا الحديد. وإذا لم تعجبك هذه المقارنة، قارن أنت بنفسك آية الحديد إلى الأعراف (٢٦): "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً" لا تقل لي بأن اللباس (وهو الملابس) قد هبطت علينا من السماء أيضاً؟! إذا لم يعجبك كلامي راجع تفاسير القرآن بنفسك.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

جوابا على السؤال حول تباين دلالة لفظ (الإنزال) في موضعين في القرآن الكريم بين الإنزال الحسي للحديد والإنزال المعنوي للأنعام وللقرآن وما شابه تبعا للسياق وكليهما حقيقة واقعة؛ أقول مستعينا بالله تعالى: إن ظاهرة تباين دلالة اللفظ تبعا للسياق من الخصائص الأساسية في لغات التخاطب وهي أجلى ما تكون في لغة القرآن الكريم، وسماها اللغويون "الوجوه"، والدلالات المعجمية لنفس اللفظ لا يتحدد إحداها إلا من خلال السياق، وكمثال على

ذلك قوله تعالى: (بَقَرَةٌ لاّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ) [البقرة :٧١]؛ فليس المراد هنا بلفظ (الأرض) الكرة الأرضية لأن المقام يتعلق بمشهد معلوم وهو إثارة بقرة للغبار ولذا يستقيم أن يكون المراد بلفظ (الأرض) هو التربة، وفي قوله تعالى: (مَن كَانَ يَظُنّ أَن لّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّمَآءِ ثُمّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) [الحج: ١٥]؛ ليس المراد بلفظ (السماء) هنا مطلق الكون أو الجو الذي يعلونا لأن المقام يتعلق بمشهد معلوم وهو مشنوق مربوط إلى ما يعلوه وهو السقف عادة.

ومن يتتبع مدار لفظ (أنزلنا) في القرآن الكريم يجده متعلقا بأمر جلل استوجب التعبير بالتعظيم، وفي مقام النعمة يجد أن فيض الطيف الدلالي يتباين من مقام إلى آخر بين الحسي والمعنوي مع قاسم مشترك من الدلالات مثل التفضل والإنعام من العلي القدير وسبق التقدير من الحكيم العظيم إلى المحتاج الضئيل بما يستوجب الامتنان والتعظيم، وفي مقام النقمة يتجلى معنى الاقتدار والتهويل.

والدلالة الحسية في (أنزلنا) لا تُستبعد إلا بقرائن صارفة ولا تنفي الدلالة المعنوية، وفي قوله تعالى: (يَا أَيّهَا النّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مّن رّبّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مّبِينا) [النساء: ١٧٤]؛ يتعلق المقام بوصف القرآن كنعمة تستوجب الامتنان لما فيه من رحمة للبشرية فناسبه تعبير (الإنزال)، وهو كقوله تعالى: (وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) [الزمر :٦]؛ وأجناسها على النحو التالي: الضأن والمعز والإبل والبقر، وتمثل لحومها وألبانها أهم مصادر الغذاء لسكان

البادية، وتعبير (الإنزال) يكشف مدى الرحمة والإنعام في إيجاد تلك المواشي المعبر عنها بلفظ (الأنعام)، وفي قوله تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمْ مّن جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ) [النحل :٨٠]؛ منافع إضافية غير اللحوم والألبان وهي منتجات الجلود كالصوف في زمهرير الصحراء، ولبيان هذا الإنعام في اللباس خاصة ناسب التعبير عن هذا (الجعل) بلفظ (الإنزال) ضمن مصادر اللباس في تاريخ البشرية؛ وذلك في قوله تعالى: (يَابَنِيَ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ) [الأعراف :٢٦]، ولذا فقد أصاب المفسرون في توجيه دلالة لفظ (الإنزال) في مثل هذا المقام إلى معاني كالإنعام والجعل والإيجاد.

أما في قوله تعالى: (وَأَنزْلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ) [الحديد: ٢٥]؛ فيستقيم حمل لفظ (الإنزال) على الأصل وهو الدلالة الحسية باعتبار تعلق المقام هنا بخلق الأرض لمجيء بيان إنزال الحديد وهو من أثقل مكونات الأرض في مقابل بيان إخراج المواد الأخف من الأرض نحو السطح في قوله تعالى: (وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) [النازعات :٣٠-٣٢]، وهذا ما يتفق تماما مع المعرفة الحديثة بخروج كل ما أدى في النهاية إلى وجود مظاهر الحياة من نبات وحيوان المعبر عنها باللفظ الجامع (مَرْعَاهَا) بعد التهيئة بتكثف أبخرة الماء وانقشاع دخان البراكين في مقابل هبوط أثقل المواد ممثلة بالحديد نحو لب الأرض الذي يتكون معظمه بالفعل من الحديد، وناسب اقتصار نزول الحديد على ما دون الجو الخلو من الإضافة (من السماء) التي لازمت في مواضع عديدة بيان نزول الماء من

السحب في الجو نحو قوله تعالى: (وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ السّمَآءِ مَآءً) [النمل: ٦٠]، ويتفق هذا مع تكون الأرض من طبقات يعلو بعضها بعضا أخفها الأعلى وأثقلها هو ما فيها في الباطن، وتلك الحقيقة العلمية يتضمنها بيان أحداث نهاية الأرض المعلومة لدينا اليوم في قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) [الزلزلة :٢]، وفي قوله تعالى: (وَإِذَا الأَرْضُ مُدّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلّتْ) [الإنشقاق :٣و٤]؛ فالوصف متعلق بالأرض المعهودة حاليا لأن ضمير (أثقالها) وضمير (ما فيها) عائد قطعا عليها نفسها.

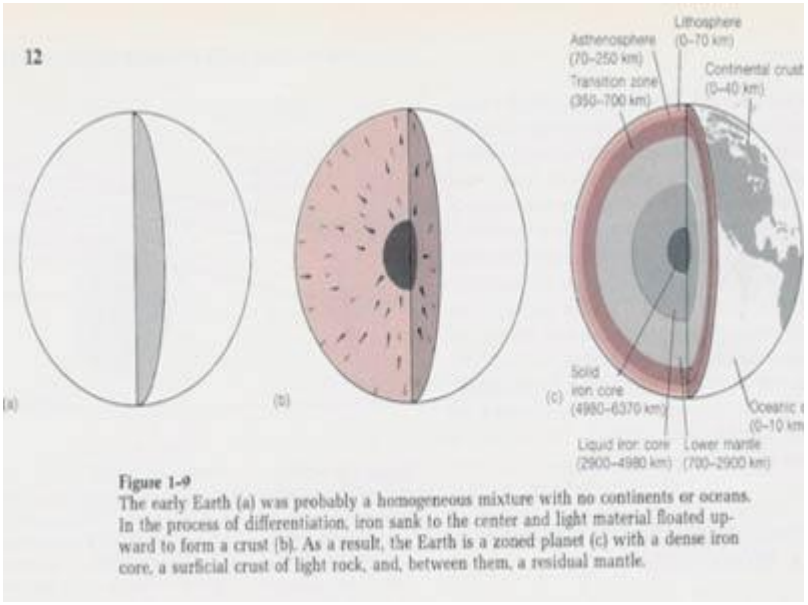

Figure 1-9
The early Earth (a) was probably a homogeneous mixture with no continents or oceans. In the process of differentiation, iron sank to the center and light material floated upward to form a crust (b). As a result, the Earth is a zoned planet (c) with a dense iron core, a surficial crust of light rock, and, between them, a residual mantle.

نزول الحديد نحو الباطن عند تكون الأرض مع خروج المواد الأخف في اتجاه السطح (المصدر كتاب فرانك برس: علوم الأرض)

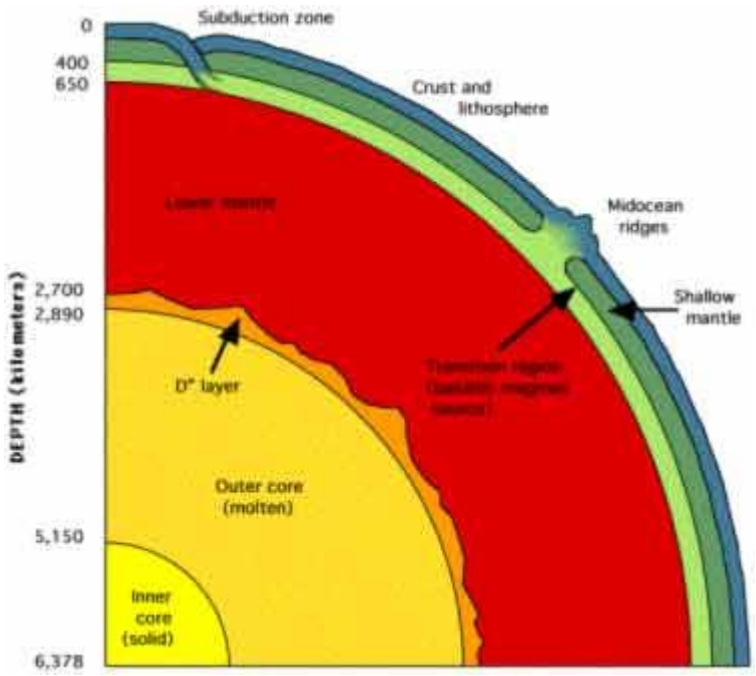

تتكون الأرض من طبقات بعضها فوق بعض وتتزايد الكثافة مع العمق ومعظم اللب حديد.

وتتميز ذرة الحديد بقوة ترابط شديدة مدهشة قد لا تكفي حرارة باطن شمسنا لتكونها مما فتح بابا لفرضية تكونه خارج النظام الشمسي في قلب نجم مجاور أعظم كتلة انفجر وتناثرت مكوناته، وتدخل ذرة الحديد في تركيبات حيوية غاية في الأهمية بالنسبة للأحياء مثل مركب هيموجلوبين الدم، وتولد حركة الحديد في لب الأرض أغلفة مغناطيسية تحمي الأحياء من خطر الرياح الشمسية، وكل تلك الحقائق يجملها قوله تعالى:)وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ(، هذا والله تعالى أعلم.

التشكيك في وجود الإعجاز العلمي في القرآن

السؤال (٥٩٧٣٢): السؤال السلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

كيف يمكن الرد على من يشككون في الإعجاز العلمي في القرآن ويقولون مثلاً أن ذكر أطوار نمو الجنين مثلاً ذكر قبلاً في التوراة ومُحَمَّد- صلى الله عليه وسلم- لم يأت بجديد؟.

الجواب:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

أقول مستعينا بالله تعالى:

ليس نادرا أن يوجد من يعمل على وأد الحقيقة عن إدراك التزاما بموروث الآباء حتى لو شابه التناقض وعابه الخلل، ولكن النادر أن ينبري محقق للنقد الموضوعي والاعتراف بالحقيقة وإن خالفت الإرث الطائفي، وفي يقظة جريئة بين ركام التقليد اعترف المحقق الفرنسي موريس بوكاي بسبق القرآن الكريم في تسجيل كثير من الحقائق في ميادين علمية مختلفة بلا خطا واحد بينما لم تثبت المدونات التي تنسب للوحي للنقد العلمي، وهكذا نال بكتابه "القرآن والإنجيل في ضوء العلم الحديث" شهرة واسعة ورفعه صدقه وجرأته إلى مصاف الأعلام. وفي التماعة لا تخلو من جرأة كذلك في كتاب "دليل إلى قراءة الكتاب المقدس" المنشور في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٨٢ والمطبوع بالعربية في بيروت

؛ كتب المحقق الفرنسي الأب أسطفان شربنتييه قائلا: ''إن الكتاب المقدس لا سيما العهد القديم كتاب محير، نعلم قبل أن نفتحه أنه الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين ونتوقع أن نجد فيه كلام الله غير ممزوج بأي شيء.. وعندما نفتحه نجد فيه قصصا من ماضي شعب صغير، قصصا كثيرا ما تكون لا فائدة فيها، وروايات لا نستطيع أن نقرأها بصوت مرتفع دون أن نخجل؛ وحروبا واعتداءات، وقصائد لا تحملنا على الصلاة وإن سميناها مزامير، وفضائح أخلاقية قديمة تخطاها الزمن وكثيرا ما هي مبغضة للنساء'' ص ٨، ''وكذلك فإن أسفار الكتاب المقدس كثيرا ما تبدو لنا مبتذلة ولا فائدة لها'' ص ٨، وفي الحقيقة قد شارك الكاتب في فضل جرأة الاعتراف عدد من أعلام الطائفة هم المترجم: الأب صبحي حموي اليسوعي، والمقدم الأب أنطوان أودو اليسوعي أستاذ الكتاب المقدس بجامعة القديس يوسف في بيروت، والموافق على النشر النائب الرسولي: بولس باسيم، وما يهمنا في أقوال الأب أسطفان شربنتييه فيما يتعلق بالجوانب العلمية عامة أو الحقائق التي فاض بها القرآن الكريم هو اعترافه بجرأة قائلا: ''قد نجد في الكتاب المقدس كثيرا من الأمور غير المطابقة للواقع'' ص٩، ولو تناول أي إنسان يرغب في معرفة الحقيقة جميع ما ينسب للوحي من مدونات تسبق القرآن فلن يجد شيئا خاصة في مجال علم الأجنة؛ فمن أين إذن ذلك الفيض غير المسبوق من الحقائق العلمية في القرآن الكريم قبل أن يبزغ عصر الكشوف العلمية بأكثر من عشرة قرون إذا كان ما يسبقه ناقص ومغلوط!.

هل أيام خلق السماوات والأرض مثل أيام الدنيا؟

السؤال (٦١٠١٠): السؤال خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، هل هي من أيام الدنيا أم من الأيام المقصودة في قوله تعالى: "وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون".

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

جوابا على السؤال (خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام هل هي من أيام الدنيا أم من الأيام المقصودة في قوله تعالى: "وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون"؛ أقول مستعينا بالله العلي العظيم:

تشير الأبحاث العلمية إلى أن تاريخ الكون ضارب في القدم، وأقرب الحسابات هي أن عمره حوالي ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة، وأن آخر معالم التكوين هي تشكل القشرة الصخرية للأرض واستقرار الجو المحيط بها منذ حوالي ٢٥٠ مليون سنة، وهكذا تشكل العالم بخلاف ما اعتقد سابقا في بلايين من السنين تكونت فيها لبنات البناء المتسع الأرجاء بالتسلسل إلى أن تشكل أصل كوكبنا مع بقية أفراد المجرة وهو ما يعرف بسديم النظام الشمسي Solar Nebula System منذ ما يزيد عن ثمانية بليون سنة، وبعد ذلك انفصلت كتلة الأرض وتميزت وتقلصت تحت تأثير جاذبية مادتها وتشكلت

طبقاتها الداخلية جميعا بنزول أثقل المواد نحو الباطن خاصة الحديد وخروج أخفها ليشكل السطح الصخري والجو منذ ما يزيد عن أربعة بليون سنة تمثل عمرها الجيولوجي، وبذلك يمكن تقسيم مراحل نشأة العالم المحيط بنا إلى ثلاثة أزمنة رئيسية متعاقبة تكونت فيها الأجرام السماوية ثم تكون أصل الأرض ثم تكونت طبقات الجو من دخان تبدد معظمه وتكونت معها أصول الألواح القارية كجزر تمتد وتميد فوق دوامات الصهير إلى أن ثبتتها الجبال، ونصيب الأرض على هذا باعتبار الأصل مرحلتين من الثلاث، فإذا كان خلق العالم كله في ستة أيام – إن شئت أن تعبر بأيام الأسبوع المعهودة عن تلك الأزمنة الهائلة فوق كل التصورات القديمة – فإن خلق الأرض بدون السطح الصخري والجو في يومين ومجموع فترات خلقها أربعة أيام، وتعجب أن تجد تلك الحصيلة العلمية التي اكتشفت وحققت في حوالي ثلاثة قرون تكاد تلمس فحسب بعض جوانب من التفصيل المعجز في قوله تعالى: "قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيَ أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَوَآءً لّلسآئِلِينَ. ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ. فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىَ فِي كُلّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيّنّا السّمَآءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" [فصلت ٩-١٢].

فأما السماء التي تلي الأرض في الخلق والنظم فيرشدك إلى تعيينها علميا في هذا المقام قول الشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور (يرحمهم الله أجمعين): "والسماء إن أريد بها الجو المحيط بالكرة الأرضية فهو تابع لها متأخر عن خلقها، وإن

أريد بها (آفاق الأجرام السماوية فهي).. أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقا" [تفسير التحرير والتنوير ج١ص٣٨٤].

والجو بالنسبة للأرض يصح لغةً أن يسمى سماء، وبالنسبة إلى كل ما يعلوه من وجود مادي يصح وصفه بأنه الأدنى، ونتيجة لتميزه عما نسميه فضاء Space بوجود الهواء يمكن وصفه أيضا بأنه منطقة بينية بين الأرض وكل ما يعلوه، وأما التشبيه بالمصابيح بجامع التوهج فنظيره قوله تعالى:"وَلَقَدْ زَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لّلشّيَاطِينِ" [الملك: ٥].

وقد توصل المحققون أن تلك الأجسام الملتهبة التي شبهت في القرآن بالمصابيح ويمكن أن تسبب ضررا للعابرين ليست إلا الشهب وهي بالقطع ظاهرة ضوئية لا تتجاوز جو الأرض، قال الشوكاني: "المصابيح جمع مصباح وهو السراج.. (و) الضمير في قوله وجعلناها راجع إلى المصابيح.. أي شبها (بدليل قاطع وهو قوله تعالى:"...إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب" [الصافات: ١٠]" [تفسير الشوكاني ج٥ص٢٦٠].

وقال الألوسي: و"الشهب شعل نارية" [تفسير الألوسي ج٢٣ص٧٣].

و"هذه الشهب ليست هي الثوابت.. وإلا لظهر نقصان كثير في أعدادها.. (خاصة أن التعبير قد) أفاد أن تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها.. (و) كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض" [تفسير الألوسي ج١٤ص٢٦].

وقال الثعالبي: "ومعنى السماء الدنيا أي القريبة من الناس" [تفسير الثعالبي ج٤ص٣٢٠].

وهكذا يمكن حمل تعبير (السماء الدنيا) على الجو المحيط بالأرض، وعند التخصيص بالكواكب دون عوالم النجوم العظيمة الأبعاد يمكن حمله على العالم الأقرب من عوالم الأجرام في قوله تعالى: "رّبّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبّ الْمَشَارِقِ. إِنّا زَيّنّا السّمَآءَ الدّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ" [الصافات: ٥-٦].

وأما التسبيع فهو دلالة على الطبقية؛ وتلك حقيقة علمية توافق ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن التسبيع ها هنا على العرف في الدلالة على التعدد والتكامل لا على التعيين، ولكن العدد لا يأباه العلم باعتبار ثلاث طبقات بينية بين الأربعة الرئيسة وهو الموافق إلى ما ذهب إليه جل المفسرين، وأما الستة أيام في بيان خلق الكون المشاهد أو بالأحرى الممكن المشاهدة فقد ورد ذكرها في سبعة مواضع أولها على حسب ترتيب النزول قول جامع يكشف العلم بخفايا التكوين ويعالج توهم في الدين ما عاد بالإمكان حذفه من المدونات الأسبق؛ وهو قول العلي القدير: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ وَمَا مَسّنَا مِن لّغُوبٍ" [ق: ٣٨].

وهو بالمثل قائم على التقريب والتمثيل بالمعهود لأنه لا وجود للأيام قبل خلق الأرض والشمس، قال القرطبي: "إن لم يكن شمس فلا يوم" [تفسير القرطبي ج٧ص٢١٩].

وقال ابن عطية: "قال أكثر أهل التفسير الأيام هي من أيام الدنيا" [تفسير المحرر الوجيز ج٣ص١٥٢].

وقال الشوكاني: "ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة.. لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء" [تفسير الشوكاني ج٢ص٤٨٢.].

وقال الألوسي: "المفسرون قالوا المراد بالأيام الأوقات" [ما دل عليه القرآن ج١ص٤٦].

فالتعبير إذن تمثيل والمراد أزمنة متتابعة كالأيام تميزها ثلاث مراحل، وأما إتيان الأرض وما يحيط بها فهو مشهد يكشف تلازم حركة الجو مع الكوكب وفق تقدير بعد مرحلة معدومة التلازم مما يعني تبدد الكثير من الجو، وتلك حقيقة علمية مبهرة جسدها التعبير بالتصوير، وترتيب الأحداث مطابق تماما لما كشفه العلم؛ كما في قوله تعالى: "ءأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السّمَآءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لّكُمْ وَلأنْعَامِكُمْ" [النازعات:٢٧-٣٣].

وهكذا يتجلى كل حين العلم في القرآن الكريم بخفايا التكوين بضرب الأمثال للمجهول زمن التنزيل بالمعلوم لتشع دلائل التنزيل بنور اليقين في صدور النابهين، يقول العلي القدير: "لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَىَ جَبَلٍ لّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ" [الحشر: ٢١]. هذا والله ﷻ أعلم.

هل خلقت الأرض جملة واحدة أم مرت بمراحل؟

السؤال (٦٨٩٩١): السؤال كيف نرد بأن الأرض مرت بمراحل حتى تكونت الجبال والهضاب خلال ما يسمى بالعصور الجيولوجية، والله

سبحانه يقول في الآية الكريمة: "ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام"، أرجو التفصيل في ذلك، وقد أثبت العلم أن الأرض مرت بمراحل.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

فأقول مستعيناً بالقادر وحده على كل شيء، سائله تعالى العون والتوفيق:

في سبعة مواضع يقرر القرآن أن خلق العالم قد تم في عملية واحدة ذات أطوار كما لو كان بناءً واحداً تتابع تشييد خطة تصميمه المقدرة منذ البدء "فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ" [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، هود:٧، الفرقان:٥٩، السجدة:٤، ق:٣٨، الحديد:٤]، والأيام ذوات العدد في مقام بناء الكون هي أقرب الأمثلة لبيان سبق التقدير والقصد منذ البدء لا الصدفة العمياء، خاصة أن التمثيل هو الأسلوب الأمثل في تعبير القرآن لكشف الحقائق الخفية بضرب المثل بالنظير المألوف، فيستقيم إذن أن تكون الستة أيام تمثيلاً، خاصة أن الزمن ناتج عن حركة أجرام، وعند التكوين لم توجد أجرام بعد، والكون بهذا ليس أبدي الوجود، وإنما تشكل في فترات مقدرة بلا توقف أو تردد كما لو كانت ستة أيام متلاحقة، وكالإنسان قدرت أيام حمله كذلك قدرت أحوال الأرض في يومين من الستة قبل الولادة، ومن بدء الحمل إلى البلوغ أربعة أيام، وهو نفس التمثيل في قوله تعالى: "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا

وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ" [فصلت: ٩ –١٠]، وبهذا خُلق العالم في ثلاث مراحل رئيسة متساوية:

في الأولى تكونت اللبنات العظام، وفي الثانية النشأة الحقيقية للأرض وبقية الأجرام أقرانها خلال نشأة المجرة ذاتها، وفي الثالثة نشأت القشرة والجو، وعمرت الأرض بالحياة، فإذا كانت النشأة الحقيقية حركياً للأرض ترجع إلى حوالي ٨,٤ بليون سنة قبل أن تعمر بالنبات الذي بدأ يطلق أكسجين الجو منذ حوالي ٠,٢٥ بليون سنة علامة على تكامل البناء؛ وإذا كان تشكيل الأرض في أربعة أيام تمثيلاً يكون الكون في ستة أيام، فيكون عمره الفعلي بنفس القيمة المعروفة الآن؛ حوالي ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة. [الكون لستيفن هاوكنج (ص٥٥)، والانفجار الكبير لسيلك (ص٧٥)].

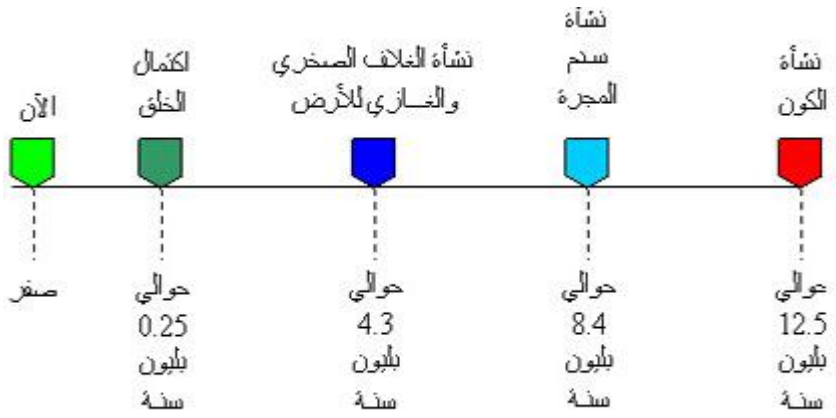

قال الرازي: "في ستة أيام إشارة إلى ستة أطوار..، (و) المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة؛ لأن اليوم عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب، وقبل السماوات لم يكن شمس ولا قمر، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت..، وقال بعض المفسرين المراد من الآية الرد

على اليهود؛ حيث قالوا بدأ الله –تعالى– خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت..، فقال تعالى (وما مسنا من لغوب) رداً عليهم.. أي ما تعبنا.

وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله، وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض، فلو كان خلق السماوات ابتدئ يوم الأحد لكان الزمان متحققا قبل الأجسام، والزمان لا ينفك عن الأجسام" [التفسير الكبير للرازي (ج٢٨ص١٥٨)].

وأما روايات إنزال الأيام الستة على أيام الأسبوع فقد جاء فيها خلق النور بعد خلق الشجر، ولكن لا يستقيم شجر بغير نور، وأرجعها ابن كثير للإسرائيليات، ونقل نقد الحفاظ لمتنها وسندها، بقوله: "فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده... عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: أخذ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بيدي، فقال: "خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل" فقد رواه مسلم بن الحجاج... والنسائي... عن حجاج وهو ابن مُحَمَّد الأعور عن ابن جريج... وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: (في ستة أيام)، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا [تفسير ابن كثير (ج٢ص٢٢١)].

وقد أصابوا بهذا -رحمهم الله تعالى- خاصة مع الانتقاد اللاذع الذي وجهه المحققون المنصفون في عصرنا لرواية التوراة التي تقول بالمثل بنشأة النبات قبل نور الشمس: "وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر.. وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا، وقال الله لتكن أنواراً... فعمل الله النورين العظيمين؛ النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل... وكان مساء وكان صباح يوما رابعا" [سفر التكوين (١١-١٩ (OnlineBible)].

وقال الشوكاني: "المراد بالأيام الأوقات أي في ستة أوقات... ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة وهي المقابلة لليالي؛ لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء" [تفسير فتح القدير للشوكاني (ج٢ص٤٨٢)].

وقال أبو السعود: "السماوات في يومين، والأرض في يومين، وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك في يومين، والمراد بالأيام الأوقات... فإن اليوم في المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض، ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء" [تفسير أبي السعود (ج٤ص١٨٧)].

وقال السمعاني: "قوله: (في أربعة أيام) أي في تمام أربعة أيام مع اليومين الأولين، وهذا كالرجل يقول: ذهبت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وذهبت من بغداد إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً، أي في تمام خمسة عشر يوما... هذا كلام العرب، ومن طعن فيه لم يعرف كلام العرب [تفسير السمعاني (ج٥ص٤٢)].

وقد أورد الأعلام أن السماء التي تشكلت إلى طبقات بعد تشكيل الأرض ليست كل ما يعلوها من الكون، وإنما دخان خرج منها عند تكونها فشكل

الجو؛ يعني في آخر يومين من الأربعة، وهو ما يوافق الرؤية العلمية الحديثة أنها كانت في غاية الالتهاب، وما زال باطنها يمور في دوامات هائلة تحمينا منها طبقة رقيقة.

نقل الماوردي [تفسير الماوردي (ج١ص٩٢)]. أنه: "الدخان الذي جعله الله للأرض سماء"، وكأنهم رحمهم الله تعالى قد فسروا قوله تعالى:"ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ" [البقرة: ٢٩]، بقوله تعالى: "ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ. فَقَضَاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ.." [فصلت:١١و١٢]، وكليهما بعد اكتمال خلق الأرض، وهناك ومضة مبهرة لاحظها الأجلاء لا تفوت الغواص في أعماق السياقات يجمع اللآلئ فيدرك قرائن التمييز، وهي تحفظ للأداة (ثم) أصل دلالتها على ترتيب الأحداث وتزيل الإشكال حول أسبقية التكوين؛ الأرض أم السماء؟ بالتمييز بين السماء التي تسبق الأرض في النَّظم والتكوين والتي تلحق بها.

قال ابن عاشور: "والسماء إن أريد بها الجو المحيط بالكرة الأرضية فهو تابع لها متأخر عن خلقها، وإن أريد بها (محل الأجرام السماوية فهي)... أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقا.وإذا كان الكون قد اكتمل منذ ٠,٢٥ بليون سنة وتطاول الزمان حتى أصبحت سنة التقويم ٣٦٥,٢٤٢١٩ يوما أي ١٢,٣٦٨ بالشهور الحالية؛ تكون السنة عند الاكتمال ١٢ شهراً في مدة ٨,٤ بليون سنة، مما يمنح فهما أعمق لقوله تعالى: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ" [التوبة: ٣٦]، فاستدار

الزمان تشريعاً كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض حقيقة، كما قال النبي -ﷺ- تماماً في حجة الوداع، ونظير الستة أيام تمثيلاً يتأكد أن عمر الكون بنفس القيمة المعروفة الآن؛ حوالي ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة.

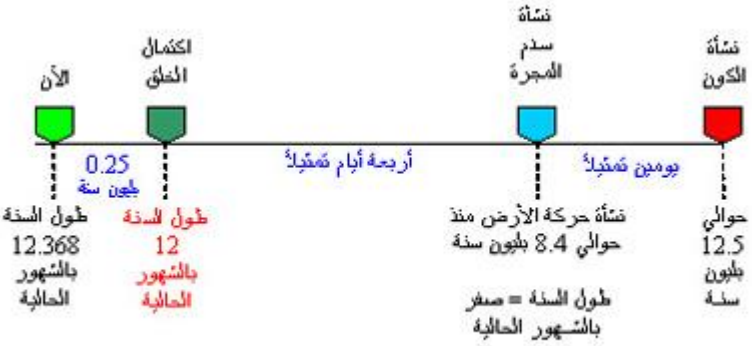

وهكذا يجد المتأمل أن موضوع التكوين في القرآن قد نال عناية فائقة لتعلقه بمبدأ الخلق وتوحيد الخالق، وبلغت آيات التكوين حوالي ضعف عدد الآيات الصريحة في التشريع، وبدراستها دلالياً تتجلى حقائق لم يدركها أحد زمن التنزيل، ولو تأملت نصوص القرآن المتعلقة بخلق العالم فستجد الأحداث مرتبة بنفس الترتيب الذي كشفه العلم بعد نزوله بأكثر من عشرة قرون. وما أجمله موضع فصله آخر مما يدفع أي احتمال أن يكون القرآن صنعة بشرية، قال تعالى: "أَأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السّمَآءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ" [النازعات ٢٧-٣٣].

ونظير خروج الماء والمواد الأخف التي أدت في النهاية إلى تكوين الجو والتربة ونشأة المراعي الخضراء العامرة بالأحياء نزل الحديد ذو المنافع العديدة

والخصائص الفريدة نحو لب الأرض، وبحركته الداخلية تولدت الأغلفة المغناطيسية فحمت الأحياء بلا دراية منها من خطر الرياح الشمسية القاتلة، ويجمل كل ذلك قوله تعالى: "وَأَنزْلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ" [الحديد: ٢٥].

ولو كان هذا القرآن صنعة بشرية ما أصاب في كل ما أخبر رغم الفيض الكبير من الحقائق في مجالات علمية متنوعة، يقول العلي القدير: "أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ" [الأعراف: ١٨٥].

السؤال (٧٠٩٦٨): فضيلة الشيخ.. السلام عليكم

ما هو الإعجاز العلمي في آية تقول إن اليوم يساوي ألف سنة، في سورتين في القرآن، مع إن السنة عدد كبير من الأيام فكيف يساوي اليوم ألف سنة؟، شكرا.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

جوابا على السؤال: (اليوم يساوي ألف سنة في سورتين في القرآن مع أن السنة عدد كبير من الأيام؛ فكيف يساوي اليوم ألف سنة؟)، والسؤال: (كيف يوم

يساوي ألف سنة وفي نفس الوقت يساوي خمسين؟)؛ أقول مستعينا بذي العزة والإجلال والعلم والاقتدار سائله تعالى السداد والتوفيق:

ورد قياس في القرآن الكريم أحد طرفيه (يوم) والآخر (ألف سنة) في سياق الإنذار باقتراب نهاية الكون ودمار الأرض وهلاك أهلها بعذاب قادم بسرعة قصوى لا تحتاج مزيد استعجال؛ يقول تعالى:)وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمّا تَعُدّونَ(الحج ٤٧، والتعبير (عند ربك) وما يماثله في القرآن لا يعني التحيز ويجعله القياس هنا بمعنى (وفق تقديره تعالى في الكون)، والأصل حمل العدد على ظاهر دلالته الإحصائية لا على مجرد التكثير أو التقليل إلا بقرينة صارفة، ويمكن حمل الإنذار على تقارب أطراف الكون وحمل الألف سنة على مسافة السير في اليوم بيانًا لحد السرعة في الكون المعبر عنها فيزيائيا بسرعة الضوء.

وفي نفس سياق الإنذار بدمار الأرض وهلاك أهلها مع تقارب أطراف الكون وإن بدا حده بعيدا وردت نفس القيم في قياس أكبر يُمكن حمله على أقصى بعد؛ يقول تعالى:"سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مّنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَنَرَاهُ قَرِيباً. يَوْمَ تَكُونُ السّمَآءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ. وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيما" [المعارج ١-١٠]، و(المعارج) جمع لاسم المكان (مَعْرَج) كأدق وصف للآفاق الممتدة حيث تسري القوى بانحناء كمشية الأعرج، والاكتشاف بأن مسارات القوى منحنية دفع الفيزيائيين لإطلاق تعبير الكون المنحني Curved Universe، وفي اللغة: "تعارج

حاكى مشية الأعرج وعرَّجه ميَّله وتعرَّج مال والتعاريج المنحنيات والعرجون العذق المعوج" ، والملائكة والروح رسل هداية لا تنقطع عن الإبلاغ إلى أن يعود كل شيء إلى الله لا سواه بيانا لوحدانيته تعالى وتفرده، وهم حضور في قياس مسافة لا يقطعها جسم مادي محدود السرعة في كون متغير الأبعاد مما يعني أنه عامر بالساجدين، قال جوهري: "أخذ يستأنف مبينا ارتفاع تلك الدرجات.. فليس المراد المدة بل بعد المدى.. وقدم الملائكة لأنهم في عالم الأرواح.. العالم المبرأ عن المادة (لأنه).. لا يُرتقى إلى تلك المعارج إلا بالكشف العلمي أو الخروج عن عالم المادة" ، وقال البيضاوي: "استئناف لبيان ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها" ، وقال البغوي: "المسافة من الأرض إلى (منتهى) السماء" .. (يعني) "إلى منتهى أمر الله تعالى" ، وقال الألوسي: "الكلام بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها.. والمراد أنها في غاية البعد والارتفاع" .. و"العروج في الدنيا.. روِي (هذا) عن ابن إسحاق ومنذر بن سعيد ومجاهد وجماعة، وهو رواية عن ابن عباس أيضا" .

وتُقاس الأبعاد فلكيا بوحدة الزمن المناسبة وأقصى سرعة، فنقول يبعد القمر حوالي ثانية ضوئية وتبعد الشمس ثمان دقائق ويبعد أقرب نجم ٤,٣ سنة، فإذا كانت القيمة (ألف سنة في يوم) تعبيرًا عن أقصى سرعة تكون القيمة (خمسين) في السياق تعدادا لأقصى وحدة زمن، وأكبر وحدة زمن فلكيا هي سنة الشمس وهي مدة دورتها حول مركز المجرة وقيمتها حوالي ٢٥٠ مليون سنة، ولكي يقطع شعاع من الضوء المسافة إلى طرف الكون الممكن الرصد يحتاج إلى عمر الكون وقيمته حوالي ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة ، والعجيب

أنها تساوي القيمة (خمسين) تماما بسنوات الشمس مما يؤكد أن القيمة (ألف سنة في يوم) تعبير عن أقصى سرعة في الكون.

وفي سياق بيان أن كل شيء مأمور أي قائم وفق تدبير لا تصنعه مصادفة ونظام واحد يشهد بوحدانية الخالق ورد نفس القياس بتفصيل أكثر يكشف وجود تقدير واحد ثابت يتعلق بالحد الأعلى للسرعة في الكون المنظور كله، يقول تعالى:)يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(السجدة ٥، و(الأمر) المدَبَّر يستقيم أن يعنى (المأمور) فيوحد كل شيء في أصل واحد ويجعل الكل منظما مقدرا، والانتقال إلى هيئة مواد الأرض ثم العودة إلى الانتقال الحر في انحناء كمشية الأعرج يوحد القوى والمواد في البنية ويوجز قصة الكون فيزيائيا منذ بدايته، ويصور (إليه) نهايته بعودة الكل إلى الله لا إلى غيره بيانا لوحدانيته تعالى وتفرده.

وباشتراك ثلاث آيات تتأكد الدلالة على وجود حد أعلى للسرعة أو ثابت كوني للحركة تقابله في الفيزياء سرعة الضوء في الفراغ والعجيب أنها تسمى كذلك الثابت الكوني للحركة Universal constant of motion، والتشبيه)وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(يُمكن حمله على أن ما تقطعه القوى في يوم لا يتجاوز مسافة ألف سنة بمقياس ما تُبنى على حركته السنة وفق ما يعدون لأن الأصل أن يكون المشبه به الأقوى في وجه الشبه، وبالمثل يدل التعبير)فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(على أن حد ما يُقطع في يوم لا يتجاوز مسافة ألف سنة، فيتأكد أن حد سرعة القوى المعبر عنها بسرعة الضوء لا يتجاوز في اليوم تلك المسافة.

وسنة العرب هي المعتمدة في التشريعات الإسلامية كالحج وصيام رمضان وهي مبنية على حركة القمر حول الأرض في ١٢ دورة، قال تعالى:)إِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ(التوبة ٣٦، وبهذا يتعين الجسم الذي يقطع المسافة في ألف سنة وتصبح (مما تعدون) معيارا للقياس تأكيدا لنسبية حركة الأجسام بلا حاجة لتعريف المعروف بجعلها تعريفا للسنة لأنها تعني مما تَحْسَبُون وتظنون وليست السنة عندهم محل ظن، والمعلوم فلكيا أن القمر يدور حول الشمس أثناء دورانه حول الأرض ولذا حركته بالنسبة للفراغ مركبة Compound، ولكن حركته حول الشمس لا يعاينها إلا مراقب خارج النظام ولذا يعدون الأرض ساكنة والقمر يدور حولها في دائرة كاملة الاستدارة ولا تلحظ العين المجردة نسبة تغير سرعته، وبهذا الاعتبار يتحقق فيزيائيا النظام المعزول.

وهكذا يدل التعبير المذهل)مّمّا تَعُدّونَ (فيزيائيا على نسبية حركة الأجسام واختلاف وصفها تبعا لموقع الراصد لأن التعبير يقتضى التعيين لمتعدد، ولا يصح رياضيا قياس القيمة المطلقة للحركة بحركة نسبية غير ثابتة لجسمين تتغير باطراد إلا في النظام المعزول حيث تصبح الحركة مجردة والعلاقة ثابتة منذ بداية تكون نظام حركة الجسمين؛ والتعبير يجعل حركة القمر حول الأرض في نظام معزول لأن حركتيهما حول الشمس لا يعاينها إلا راصد خارج النظام، والراصد من الأرض يعد حركة القمر بمجرد النظر دائرة كاملة الاستدارة غير مدرك لنسبة تغير سرعته، وبهذا توفرت كل العناصر اللازمة لقياس حركة القوى بحركة جسمين وصيغت علاقة في نظام معزول كما هي كافة قوانين الحركة،

فتأمل كيف تضمن القياس الدلالة بلفظ سنة على القمر الذي يبنى قوم النبي مُحَمَّد e وأتباعه على حركته السنة، وهو فلكيا أقرب الجيران ويتحرك بانتظام ومعرفتنا به أكثر من بقية الأجرام وحركته الفلكية هي الأنسب لوصف سرعة لا تناسبها مسافة على الأرض، وتأمل الدقة في تقييد حركة نسبية وفق ما يعدون مما يجعل القياس في نظام معزول!:

حد السرعة في الكون الفيزيائي = مسافة ألف سنة قمرية في اليوم (في النظام المعزول في أي وقت منذ النشأة)

يقول الفيزيائي ستيفن هاوكنج Stephen Hawking: "تختلف سرعة الضوء عن سرعة أي شيء آخر، فلا يمكن وصف سرعة رصاصة بندقية أو سرعة القمر أو أي سرعة كوكب إلا بالنسبة إلى شيء ما آخر، بينما لا تنسب سرعة الضوء إلى أي شيء آخر، إنها قيمة ثابتة مطلقة Absolute Constant" ، وقيمة سرعة الضوء في الفراغ والمعلنة دوليا منذ عام ١٩٨٣ في مؤتمر باريس للقياسات هي: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ (حوالي ٣٠٠ ألف) كيلومتر في الثانية، ويمكن التعبير عن تلك القيمة بأي وحدات قياس أخرى، وإن شئت استخدام وحدات فلكية غير اصطلاحية يشترك فيها جميع أهل الأرض فاليوم هو أدنى وحدة للتعبير عن زمن دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس، وإن شئت الدقة فطوله قياسا على نجم بعيد ثابت ٨٦١٦٤,٠٩٩٦٦ ثانية ويسمى باليوم النجمي Sidereal Day بينما تبلغ الفترة بين شروقين متتاليين ٨٦٤٠٠ ثانية وتسمى باليوم الاقتراني

Synodic Day، والزيادة الظاهرية (حوالي أربع دقائق) ناجمة عن حركة الأرض حول الشمس أثناء حركتها حول نفسها.

وقياسا على نجم بعيد ثابت تبلغ المسافة التي يقطعها الضوء في يوم ٢٥,٨٣١٣٤٧٢٣ بليون كيلومتر، وهي قيمة لا تكفي المسافات المحدودة على الأرض للتعبير عنها إلا باستخدام مسافات تقطعها أجرام فلكية، والقمر أقرب الأجرام وعلى حركته في ١٢ دورة اعتبرت السنة، ولكن حركته نسبية ونرصدها فلكيا أثناء حركتنا مع الأرض حول الشمس، ولذا إن شئت الدقة يجب نسبة حركته كذلك إلى نجم بعيد وكأن الأرض ثابتة لا تدور حول الشمس كما يعدها أهلها، وحينئذ ستذهلك مفاجأة ادخرها القرآن بتأكيده في مقام بيان سرعة قصوى ذات قيمة كونية ثابتة أن يوما كألف سنة، لأن سرعة القوى جميعا واحدة ذات قيمة كونية ثابتة وما تقطعه في يوم يماثل تماما في دقة مذهلة ما يقطعه القمر في ألف سنة باعتبار ما يعدون؛ أي كما لو كانت الأرض ثابتة لا تدور حول الشمس.

وفي حالة دوران تابع مع المتبوع ليقطع زاوية (Ø) حول نجم يكتسب نسبة إضافية إلى حركته الأساسية بنسبة حركته إلى الفراغ قياسا على نجم بعيد ثابت، وتنعكس زيادة التسارع Acceleration إلى نسبة تغير في سرعته وبالتالي تصبح سرعته وسطية (V) ويصبح مداره حول المتبوع ناقص الاستدارة Ellipse بنفس النسبة وكأن اتجاهه قد تغير على مداره الأصلي في النظام المعزول بنفس الزاوية، ويعبر عن مقدار نقصان الاستدارة بقيمة الانحراف عن الدائرة Eccentricity(e) وهي نصف نسبة التغير (e٢)، ولذا تتعين

سرعة التابع في النظام المعزول باستبعاد نسبة التغير أو بتعيين قيمة مركبة السرعة الوسطية في الاتجاه الأصلي بعد دورة (VجتاØ).

سرعة التابع قياسا على النجوم تغير اتجاهها نتيجة حركة إضافية مع المتبوع حول نجم.

تنعكس الحركة الإضافية للتابع حول النجم إلى نسبة تغير في سرعته حول المتبوع ويصبح مداره ناقص الاستدارة وكأنه انتقل في مداره المعزول بنفس زاوية تغير الاتجاه.

وحركة القمر حولنا لا تُرصد من أرض ساكنة كما يعدها أهلها وكأنه بالنسبة إلى الفراغ لا يتحرك حول الشمس وإلا كان مداره كامل الاستدارة وقيمة سرعته غير وسطية، ولكن القمر يقطع كل دورة حول الأرض زاوية Ø حول الشمس ولذا يوصف مداره بأنه ناقص الاستدارة وأن سرعته وسطية غير ثابتة وتعاني من نسبة تغير، والحاصل أن حركته المرصودة فلكيا من الأرض هي بالنسبة للفراغ حصيلة حركته حول الأرض وحركته حول الشمس، وكأي تابع يدور حول متبوع وحول نجم يمكن تعيين النسبة الثابتة من السرعة الوسطية للقمر باعتبار سكون حركته مع الأرض حول الشمس بتعيين قيمة مركبة السرعة كمتجه في الاتجاه الأصلي قياسا على نجم بعيد ثابت.

قيمة مركبة السرعة في الاتجاه الأصلي بعددورة تمثل سرعة القمر في النظام المعزول.

وتضيف الأرض بالنسبة لنجم بعيد كل دورة لها حول الشمس دورة كاملة حول نفسها: (سنة\يوم اقتراني) = (سنة\يوم نجمي) – ١، ولذا اليوم

الاقتراني ٢٤ ساعة والنجمي ٨٦١٦٤,٠٩٩٦٦ ثانية حاليا، ويضيف القمر بالنسبة لنجم كل دورة مع الأرض حول الشمس دورة حول الأرض: (سنة\شهر اقتراني) = (سنة\شهر نجمي)-١، ولذا الشهر الاقتراني ٢٩,٥٣٠٥٨٨١ يوما والشهر النجمي ٢٧,٣٢١٦٦٠٨٨ يوما حاليا، والمعلوم أن السنة النجمية حاليا= ٣٦٥,٢٥٦٣٦ يوما، ولذا يمكن حساب الزاوية التي يضيفها بالنسبة لنجم بعيد كل دورة حول الأرض: Ø = (شهر نجمي\سنة نجمية)× ٣٦٠ = ٢٦,٩٢٨٤٧٨١٧ (حوالي ٢٧) درجة، و حاليا نسبة مركبة السرعة الوسطية للقمر في الاتجاه الأصلي بعد دورة كاملة (جتا0.8915725423 = (Ø، ونسبة التغير في السرعة 1٢) = e- جتا0.1084274577 = (Ø، والمعلوم فلكيا أن السرعة الوسطية للقمر حاليا حوالي ١,٠٢٣ كم\ثانية ، والقيمة ١,٠٢٢٧٩٤٢٧٢ (حوالي ١,٠٢٣) كم\ثانية تحقق تماما القيمة الفيزيائية المعروفة منذ عام ١٩٨٣م لسرعة الضوء في الفراغ المعبرة عن سرعة كافة القوى وفق العلاقة المفترضة في القرآن؛ المسافة الفلكية المجردة التي يقطعها القمر في ألف سنة = (١,٠٢٢٧٩٤٢٧٢ ×٢٧,٣٢١٦٦٠٨٨× ٨٦٤٠٠) ×(١٠٠٠×١٢) ×(جتا Ø: 0.8915725423) كم = ٢٥,٨٣١٣٤٧٢٣ بليون كم في الوقت الحالي، إذن:

حد السرعة في الكون الفيزيائي = مسافة ألف سنة قمرية\يوم = ٢٥,٨٣١٣٤٧٢٣ بليون كم\٨٦١٦٤,٠٩٩٦٦ ثانية

٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ (حوالي ٣٠٠ ألف) كم\ثانية؛

وهي نفس قيمة سرعة الضوء في الفيزياء:

٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ (حوالي ٣٠٠ ألف) كم\ثانية.

لم يقدم الدليل الأول على تحرك الضوء بسرعة غير لحظية إلا عام ١٦٧٦ عندما نجح الفلكي "أولاس رومر" للمرة الأولى في التاريخ من قياسها عن طريق ملاحظة تأخر ظهور أقمار كوكب المشتري خلفه بفارق زمني عندما تكون الأرض في الجهة الأبعد منه خلال دورتها حول الشمس، لأن ضوء الأقمار يحتاج لفترة أطول كي يعبر نحو الأرض فيمكن مشاهدتها مما يعني أن سرعته محدودة، ولعدم المعرفة الدقيقة لطول القطر الأكبر لمدار الأرض كانت النتيجة واسعة التقريب وهي حوالي ٢٢٧ ألف كم\ ثانية ولكن أمكن تقديم الدليل الأول على أن سرعة الضوء محدودة، وبعد حوالي نصف قرن حصل برادلي عام ١٧٢٨ على نتيجة مقاربة عن طريق قياس فلكي آخر، ولم تبدأ القياسات الدقيقة إلا في منتصف القرن التاسع عشر داخل المعمل، وفي القرن العشرين استخدمت في القياس تقنيات أكثر دقة ومع استخدام الليزر بلغت الدقة إلى حد أن الخطأ لا يتجاوز أجزاء قليلة من البليون، وأخيرا بعد جهود استمرت حوالي ثلاثة قرون أمكن عام ١٩٨٣ في مؤتمر القياسات في باريس تعريف مسافة المتر بالزمن اللازم ليقطعها الضوء (٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٣٣٣٥٦٤٠٩٥٢ ثانية) بناء على القيمة الدقيقة لسرعة الضوء في الفراغ وهي ٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ كم\ثانية .

وبدون المعلومات الفلكية والفيزيائية التي توفرت حديثا بعد جهود مضنية يصعب فهم تلك القياسات المبنية على معرفة بالخفايا حتى على أكابر

المفسرين، فمنهم من تورع ومنهم من اجتهد، وقد بلغت الصعوبة إلى أن قال الألوسي في تفسير إحداها: "هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها ولا يخفى على ذي لب تكلف أكثر هذه الأقوال ومخالفته للظاهر جدا وهي بين يديك فاختر لنفسك ما يحلو.. وأقول إن الآية من المتشابه" ، وتورع ابن عباس (رضي الله عنهما) في موطن عن الخوض في قياس لم تتضح كيفيته بعد، ومع ذلك أصاب عين النبع بضربة معول موفقة فلم يبق إلا القليل ويفيض النهر عندما فسر سير الأمر بقوله: "لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم"، قال القرطبي: "ذكره الزمخشري والمهدوي عن جماعة من المفسرين وهو اختيار الطبري" .

والقياس عند ابن عباس: "(هو) مقدار سير الأمر" ، قال قتاده: "يقول مقدار مسيره في ذلك اليوم ألف سنة" ، وقال القرطبي: "في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة" ، وقال الألوسي: "في يوم مقدار مسافة السير فيه ألف سنة"، وقال الطبري: "لأن المسافة مسيرة ألف سنة"، وقال الرازي: "واليوم هنا زمان"، وقال الزمخشري: "(وهو) يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد"، وهكذا قال جل المفسرين أن الألف سنة مسافة واليوم زمنها، والأليق أن تكون بسير ما تبنى على سيره السنة وفق ما يعدون في مقام قياس يتعلق بسير الأجرام الفلكية، ومقام القياس يقتضي بيان سير بالغ السرعة في العالم كله بسير محدود السرعة لجسم معهود، وليس ما قالوه على فضلهم إلا تصديقا لموفق أصاب معوله عين النبع بقوله: "لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم"، فسبق بهذا عصره حيث ساد الاعتقاد بأن سقف العالم محدود البعد، قال الألوسي:

"وإن لم تبعد هذه السرعة.. عند من وقف على سرعة حركة الأضواء وعلم أن الله U على كل شيء قدير" .. وقال: "وأي مانع أن يخلق الله تعالى .. من السرعة نحو ما خلق تعالى في ضوء الشمس.. (فإن) ضوءها ليصل إلى الأرض في مدة ثمان دقائق" ، وقال أن من النجوم: "ما لا يصل نوره إلى الأرض في مائة سنة بل أكثر مع شدة سرعة الضوء" .

وترد تساؤلات ينبغي الجواب عليها، هل هذا هو مُراد الله تعالى؟؛ الأسلم القول: الله أعلم بمراده، ولكن التأكيد على نفس القيمة الكونية الثابتة في سياقات تتعلق بالسرعة التي لا تحتاج مزيد استعجال يلتقي مع أوصاف قيمة كونية ثابتة مقابلة في الفيزياء خاصة مع توافق القيم، ولماذا نجعل أمر الله مقيد السرعة بينما سرعته لحظية؟؛ والجواب أن في التعبير (يدبر الأمر) وقع (الأمر) مفعولا به ليعني المأمور به فيشمل كل شيء ويجعله مدبرا وفق تقدير ونظام ولا يعني إرادته تعالى ولا كلامه وإلا اختلط المعني، ولماذا نستخدم حركة القمر كمقياس دون الجمل أو الحصان؟؛ والجواب أن القمر هو الجسم الوحيد الذي تبنى على حركته السنة عند قوم النبي مُحَمَّد r أول المخاطبين خاصة مع اعتماد تقويمهم في التشريع، ولماذا لا نحول الشكل الناقص الاستدارة لمدار القمر إلى دائرة بلا خصم نسبة لتوافق النتيجة؟؛ والجواب أن ذلك يعطل وظيفة التعبير]مِّمَّا تَعُدّونَ [المصاحب للعلاقة في نصين فيصبح بلا فائدة، والسياق يتعلق بحركة نسبية وهو يقيدها ويجعلها مجردة خاصة في مقام قياس يتطلب التعيين، والملفت للنظر أن النسبة المستبعدة لعزل النظام توافق تماما نسبة التغير المعلومة فلكيا في سرعة القمر، وتلاحظ أنك لم تغير من حركة القمر في الحقيقة شيئا

وإنما حسبت قيمة سرعة نسبية يختلف تقديرها تبعا لما تُنسب إليه، والقيمة بالنسبة للراصد فلكيا من الأرض تختلف قطعا عن القيمة بالنسبة للفراغ قياسا على النجوم، وإليك هذا المثال لينقلك من الحركات الفلكية الصعبة التخيل إلى حركات الأجسام المعتادة يوميا على الأرض ليتضح لك مبدأ نسبية حركة الأجسام؛ سيارة تسير بسرعة ١٠٠ كم\ساعة يعاينها قائد سيارة تسير خلفها بسرعة ٤٠ كم\ساعة في نفس الاتجاه، فبالنسبة لمراقب على الأرض سرعتها ١٠٠ كم\ساعة أما بالنسبة لقائد السيارة التي تسير خلفها فسرعتها ٦٠ كم\ساعة بينما حركة السيارة المرصودة ذاتها لم تختلف، وقد يصعب إدراك تغير القيم عند نسبة حركة القمر إلى الفراغ بدلا عن الأرض ولكن يكفي توافق النتيجة ليؤيد الاستدلال، ولا تستقيم النتيجة إلا باستبعاد أثر الحركة حول الشمس مما يقطع بالعلم بحركة الأرض حول الشمس قبل أن يُحاكم جاليليو بعشرة بقرون.

إنه الوحي ينطق بالحق إلى أن يأتي الموعود من أمة لم تعهد كتاب ليرشد إلى جميع الحق، ولو كان هذا القرآن ناقلا عن كتاب سبق فكيف يكمل دائما النقص ويعدل عن التشويه قبل أن يأتي عصر العلم ليتبين أنه الحق وما عداه ناله تعصب الطوائف والبلى بتطاول الزمن، ناهيك عن تثنية للنبأ وتفصيل كل ما تناوله بلا اختلاف صنعته جملة أيادي مهيمنا على كل ما سبق وفيض من الحقائق حيرت النبهاء حتى أتى بتأويلها عصر العلم!، يقول تعالى: "وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذّبَ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظّالِمِينَ" [يونس:٣٧-٣٩].

---

١ البغوي ج٣ص٤٩٨.

البغوي ج٤ص,٣٩٢

٣ الألوسي ج٢٩ص,٥٨

٤ الألوسي ج٢٩ص,٥٧

٥الكون لستيفن هاوكنج ص٥٥،

والانفجار الكبير لسيلك ص,٧٥

٦ Hawking' universe, p.35

٧ Laros Astronomy, p.142

٨ موسوعة اكسفورد ص,٣١٦

٩ تفسير روح المعاني ج ٢١ص,١٢٢

١٠ تفسير القرطبي ج٧ص,٥٩

١١ الإتقان ج٢ص,٧٦

١٢ الدر المنثور ج٦ص,٥٣٨

١٣ تفسير القرطبي.

١٤ الألوسي ٢٩\,٥٨

١٥ تفسير الألوسي ٢٧\,٧٦

١٦ ما دل عليه القرآن ج١ص٤١.

الكون بين الاتساع والانكماش

السؤال (٧٣١٩٨): يقول القرآن إن الساعة قريبة، بينما يؤكد دعاة الإعجاز العلمي ما يقوله الفيزيائيون من أن الكون في اتساع دائم، فما تفسير ذلك؟.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

جوابا على السؤال حول حالة الكون الآن: (هل هو في اتساع مستمر إلى أن تضم جوانبه فجأة، أم هو في ارتداد قد بلغتنا علاماته، وهل الجواب في القرآن والعلم سواء)؛ أقول مستعينا بالعلي القدير سائله -سبحانه وتعالى- العون والتوفيق:

أعلن أدوين هبل Edwin Hubble في العام ١٩٢٩ ملاحظة كانت حجر الأساس في المفهوم الحديث حول طبيعة الكون وتطوره، فقد لاحظ أن المجرات العظمى تبدو في انحسار، وكلما زاد بعدها زاد معدل الانحسار مما يعني أن مادة الكون في الماضي البعيد كانت في حيز ضئيل تزايد بالاتساع كما تتباعد المواد عند الانفجار، ولذا نالت تسمية "الانفجار العظيم Big Bang" قبولا واسعا في تفسير نشأة الكون وتشكل مكوناته بالاتساع

Expansion، ومعدل انحسار المجرات قيمته ثابتة وفقا لبعدها ويسمى (ثابت هبل) وتقديره حاليا حوالي: ٢٤ (٣٠-٢٠) كم/ ثانية، ولذا يمكن استنتاج عمر الكون (عمر الكون = سرعة الضوء\ثابت هبل×مليون) وهو حوالي: ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة، ولما كانت فكرة مركزية الأرض للكون قد دفعتها مشاهدات سابقة فلم يبق إلا قبول مبدأ التجانس Uniformity في تباعد المجرات أو اقترابها بحيث يعاين المراقب من أي موقع في الكون نفس ما يعاينه المراقب على الأرض، ولما كان الكون حادثا وليس أزليا والتوسع المعاين يعكس حالة المجرات العظمى في الماضي البعيد عندما صدر الضوء المحدود السرعة منها منذ بلايين السنين فليس مستبعدا أن يكون بناء الكون آيل للانهيار والزوال خاصة أن المجرة الأقرب على سبيل المثال وهي المجرة المسلسلة Andromeda تبدو في اقتراب بسرعة حوالي ٣٠٠ كم\ثانية، فإذا كان التجانس مقبولا في ابتعاد المجرات واقترابها فليس مستبعدا أن يكون الكون حاليا ينطوي في انكماش بلغتنا شواهده من الطرف الأقرب، ولم تصلنا بعد من المجرات الأعظم إلا شواهد الانحسار في الماضي نتيجة لبعدها الشديد، والقول إذن بأن الكون في اتساع مستمر يغفل عن اقتراب أقرب المجرات والسرعة المحدودة للضوء القادم من المجرات الأعظم ذات الأبعاد الهائلة، وهو في جانب وهم أزلية المادة والتشكيك في مبدأ حدوث الكون واستبعاد نهايته.

واكتشاف أدوين هبل بأن الكون يبدو في توسع مما يحتم أن تكون له بداية قد أزعج فئة تميل للإلحاد، فحاولوا التشويش عليه تهربا من مبدأ الخلق بفرضيات

يجمعها وهم سرمدية الكون تحت مسمى الحالة الثابتة Steady state، ولو كان الكون ذا بداية أكبر كثافة وأكبر حرارة نتيجة لانضغاط المادة في حيز ضئيل لأصدر في كل اتجاه أشعة تدل على درجة الحرارة الهائلة، تلك التي لا يبلغها اليوم قلب أي نجم مهما بلغت عظمته، ولذا جاءت الضربة القاصمة لتلك الفرضيات قبل نهاية القرن الماضي، فتوارت إلى الأبد عندما اكتشف أرنو بنزياس Arno Penzias وروبرت ويلسون Robert Wilson تلك الأشعة عام ١٩٦٤ بغير قصد، وتحتمت البداية بلا منافس وتزاحمت الاحتمالات حول كيفيتها، واعترف الفيزيائي هاوكنج قائلا: "إن كونا ذا بداية يستحيل مطلقا أن يكون بلا خالق"، فوحدة البداية تقطع بوجود الخالق، وبالطبع وحدته ناهيك عن التصميم المتقن والنظام الثابت الذي أقر هاوكنج أنه "عماد تاريخ العلم التجريبي أجمعه".

ويبحث الفيزيائيون –حالياً– عن أدلة تكشف نهاية الكون، وأحد الأساليب لتأييد احتمال الانكماش أو الكون المغلق Closed universe اصطلاحا هو تجاوز القيمة الحرجة للكثافة الوسطية للمادة في الكون وقيمتها: ١٠-٢٩ جم\سم٣؛ أي ما يعادل حوالي ٥ ذرات أيدروجين في المتر المكعب، وهي في حدود القيمة المحسوبة حاليا للمادة المنظورة، وللمقارنة تبلغ قيمة كثافة الماء ١ جم\سم٣ أي ما يعادل حوالي ٥٠٠ بليون بليون بليون ذرة أيدروجين في المتر المكعب، والمعتقد حاليا وجود مادة غير منظورة بكميات هائلة تسمى المادة السوداء Black matter ترجح انكماش الكون.

وكلما انكمش الكون تزايدت كثافته، ومع تلاشي المسافات تصبح لا نهائية، ولكن تلاشي المسافة يعني انعدام المادة بحيث تتلاشي الكثافة، وهذا يعني توقف القوانين وبلوغ حالة يستوي فيها العدم والوجود في لحظة الفناء العظيم، وهي تماثل تماما لحظة الخلق العظيم حيث وجدت مادة الكون فجأة من عدم، تلك اللحظة المبهرة تسمى –فيزيائياً– لحظة التفرد Singularity لتوحد كافة تنوعات المادة في بنية أساسية واحدة، واللحظة التي يحتمل إعمال قوانين الفيزياء عندها أو قبلها تسمى الكثافة عندها كثافة بلانك Planck density وتبلغ ١٠ ٩٣ جم\سم٣ أو ما يماثل ١٠٠ بليون مجرة مكدسة في حيز ضئيل لا يتجاوز مداه ١٠-٣٥ متر (مسافة بلانك) عندما كان عمر الكون ١٠-٤٣ ثانية (زمن بلانك)، ولك أن تقول إنه كان عدما عند اللحظة صفر فلا تعمل قوانين الفيزياء إلا مع توفر المادة بعد أجزاء ضئيلة للغاية من أول ثانية، فصفحة الكون ليست أبدية، وإنما ضمن منظومة طوي بعضها الزمن والبعض لم يظهر بعد للوجود، وإنما الكون ينحني على نفسه وينطوي في امتداد مستمر نحو نهايته إن شئت التعبير بالاستمرار، والتعبير الأدق أن يقال: إنه كان حين البناء في اتساع كما ترتفع طوابق البيت حين البناء، وعندما تحين ساعته يُعكس الاتجاه ليعود لأصل حالته، والقول إذن بأن الكون في اتساع مستمر يغفل عن قوانين تطوره، ويماثل القول بالخلق الفجائي للكائنات بلا أطوار.

وقد بلغ التمثيل في القرآن الكريم لحقائق الكون الخفية زمن التنزيل الغاية في الدقة والوفرة والاستيعاب بما لا يعارض حقيقة مكتشفة والقمة في التلطف بما

لا يلفت عن غرض، فوصف الكون بالبناء، وجاء بتعبير السماء الدال على العلو بالنسبة للمتطلع من الأرض في مرونة يحدد مداه السياق، وجعل بروج النجوم لبنات والوجود آفاق بتعبير السماوات، ووظف دلالات لفظ السماء لتشمل طيفا واسعا من الكيانات التي تمتد فوق سطح الأرض ولذا طالها فرع شجرة في قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيّبَةً كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السّمَاءِ" [إبراهيم: ٢٤]، وبعيدا عن تصورات الكيفية قبل استقرار الحقائق فإن القرآن حاسم في جعل تنوعات التجمعات النجمية باسم البروج فوق عالم الكواكب الأدنى، حيث تسبح الشمس والقمر في محيط الوجود حولنا في قوله تعالى: "وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ" [البروج: ١]، وقرائن السياق قد تدل على الإطلاق فتمد دلالة لفظ السماء لتستوعب الكون الفيزيائي Physical universe أجمعه.

ولا يفوتك أن التعبير عن التوسع حين البناء برفع السماء تمثيلا جاء فيه فعل (الرفع) بصيغة الماضي بلا استثناء مما يقصر الاتساع على وقت البناء، ويعارض القول باستمراره إلى الآن، يقول تعالى: "أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ" [الغاشية ١٧و١٨]، ويقول تعالى: "وَالسّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ" [الرحمن: ٧]، ويقول تعالى: "اللهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" [الرعد:٢]، وجاء التعبير عن الرفع بلفظ الخلق بيانا لتكامل البناء في قوله تعالى: "خَلَقَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" [لقمان: ١٠]، إنه عمل كامل يمكن معاينته اليوم، ولذا ورد بيان خلقه بفعل (البناء) بالماضي كذلك بلا استثناء، يقول تعالى: "أَأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السّمَاءُ بَنَاهَا.

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا" [النازعات: ٢٧و٢٨]، ويقول تعالى: "أَفَلَمْ يَنظُرُوَاْ إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا" [ق: ٦]، ويقول تعالى: "وَالسّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا" [الشمس: ٥]، وفي قوله تعالى: "وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ" [الذاريات: ٤٧]؛ فعل (البناء) بالماضي يفيد التكامل، ويرجح أن (مُوسِعُونَ) أي قادرون على إعادته كقوله تعالى: "عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُه" [البقرة: ٢٣٦]، أي القادر خاصة أنه غير (مُوَسّعُون) أي نوسعها دوما.

فهل الكون في القرآن في ارتداد؟؛ هذا هو صريح الآيات، فالموعد قريب والكون كله كمثقلة على وشك الوضع، والأمر قد أتى ولم يصل بعد تأكيدا لتقدير سرعته، ولا دليل على أن سرعة الانتقال عند نهاية الكون ستصبح لحظية فجأة وتخرق قانونا يشهد بوحدة التقدير، وإذا كنا نشاهد الأطراف البعيدة في انحسار فذلك حالها يوم أن انطلق في الماضي السحيق الضوء المرصود الآن، أما حالها آنيا فلا يعلم به أحد سوى الله تعالى وحده، أليس الضوء مقدر السرعة؟ فكيف نقرأ إذن رسالة سُطِّرَت منذ بلايين السنين عند تشييد الطوابق قبل اكتمال ارتفاع هيكل البناء وكأنها كُتِبَت الآن؟، وإن شئت أن تنال ما تستحقه الحقيقة من فزع فاسأل الجيران من المجرات في أقرب الآفاق تخبرك أقربهن على بعد ٢ مليون سنة ضوئية أنها تقترب مسرعة، ولا نعلم شيئا عنها الآن، ولم يقل القرآن إن الكون في اتساع مستمر، وقوله تعالى: "وَالسّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ" [الذاريات: ٤٧]؛ لا يعني دوام التوسع بعد تكامل البناء، وإلا ما كانت للنهاية ساعة، وفي اللغة اسم الفاعل "مُوَسّعُون" (بضم الميم وفتح الواو وتشديد وكسر السين) يعني دوام التوسعة، ولكن الذي

في الآية "مُوسِعُون" (بضم الميم وتسكين الواو وكسر السين) ويعني دوام القدرة، والقدرة في مقام الخلق تعني إعادته.

وأصل اللفظ (مُوسِعُون) أي لذو سعة تمثيلا للقدرة والاستطاعة بالامتداد في المكان وتكشف قرائن السياق ماهية السعة، فتشمل أحوالا كسعة المكان وسعة الرزق وسعة الثراء وسعة القوة والقدرة والاستطاعة، وفي مقام خلق الكون تعني القوة والقدرة والاستطاعة على إعادته وتتضمن الدلالة على بالغ سعة امتداده وعظمته إيغالا في بيان الاقتدار فتعني ضمنا التوسعة الهائلة حين البناء، قال ابن جزي: "وسع يسع سعة من الاتساع ضد الضيق، والسعة الغنى، والواسع اسم الله تعالى، أي واسع العلم والقدرة والغنى والرحمة"، وقال البغوي: "(وإنا لموسعون) قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- لقادرون"، وقال الزمخشري: " (وإنا لموسعون) لقادرون من الوسع وهو الطاقة"، وقال ابن حجر: "قوله لموسعون أي لذو سعة، وكذلك (على الموسع قدره) يعني في قوله تعالى (ومتعوهن على الموسع قدره) أي من يكون ذا سعة.. يعني القوي وروى ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح قال (وإنا لموسعون) قال أن نخلق سماء مثلها"، وقال السمعاني: "قال مجاهد معناه يسع قدرتنا أن تخلق سماء مثلها"، وقال الرازي: "وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيا كما قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَذِي خَلَقَ السّمَاواتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىَ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىَ وَهُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ) [يس: ٨١].

والقرآن الكريم يؤكد على قرب ساعة الميعاد؛ يقول تعالى: "أَزِفَتْ الْآزِفَةُ" [النجم: ٥٧]، ويقول تعالى: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ"

[الأنبياء: ١]، ويقول تعالى: "فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا" [مُحَمَّد: ١٨]، "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي لاَ يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنّكَ حَفِيّ عَنْهَا قُلْ إِنّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" [الأعراف: ١٨٧]، وفي كل هذا كما قال ابن كثير وغيره (رحمهم الله جميعا): "يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ" [النحل: ١]"، فكيف يُستبعد إذن أن يكون الكون في ارتداد والقوى تمضي مسرعة لا تحتاج مزيد استعجال ليكتمل طي كل الصفحات!، كما قال تعالى: "يَوْمَ نَطْوِي السّمَاءَ كَطَيّ السّجِلّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوّلَ خَلْقٍ نّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنّا كُنّا فَاعِلِينَ" [الأنبياء: ١٠٤]، والسجل مسطح يُطوى يحوي كل الصفحات، ولا يظهر منه سوى طرفه القريب، وهو أدق وصف للكون المترابط البناء المنحني المحجوب، وأما بدء الخلق فحقيقة ساطعة قضت إلى الأبد على فرضية الكون الأزلي باسم الحالة الثابتة، وزيفت مستنداً مزعوماً فطواه الزمن، وتصريح القرآن بالتوسع الكوني – قبل أن يدركه بشر بقرون– دليل حاسم على التنزيل.

هل ما نراه هو السماء الدنيا فحسب؟!

السؤال (٧٤٤٤٣): هل الكون – فلكياً– هو السماء الدنيا، بحيث يكون ما نراه هو السماء الدنيا فقط، كما يقول معظم علماء الإعجاز العلمي؟ وما الدليل على هذا من القرآن؟ وإذا كان هذا صحيحاً، فكيف يقولون: كان الكون متصلاً ثم انفصل، بدليل الآية: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما"، والآية تتكلم عن كل السماوات وليس السماء الدنيا فقط، فكيف نحل هذا الإشكال؟ وجزاكم الله خيراً.

الجواب:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

جوابا على السؤال عن دلالة تعبير (السماء الدنيا) في القرآن الكريم وموافقتها للواقع؛ أقول مستعينا بالله العليم القادر:

تنصرف دلالة لفظ (السماء) في القرآن الكريم إلى موجودات تميزها قرائن السياق؛ لأن أصل دلالته وجود في العلو، ولذا قالوا: "السماء هي كل ما علاك فأظلك"، فقد يعني سقف البيت أو السحاب أو الجو أو ما يصطلح عليه باسم الفضاء، ووروده بالجمع بلفظ (السماوات) يدل لغة على طبقية التكوين، فيعني تميز الموصوف سواء الفضاء أو الجو إلى طبقات، وقد وصف الكون بدقة في قوله تعالى: "تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى. الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىَ. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ

الثَّرَىَ" [طه ٤-٦]، فلفظ (الْعُلَى) جمع العليا تأنيث (الأعلى)، فأفاد وجود غيرها تماثلها في طبقية التكوين، وهو ما يتفق مع تشكل الفضاء لطبقات تميزها بروج الأجرام وتشكل الجو كالأرض بالمثل طبقات، وفي قوله تعالى: "إِنّا زَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مّن كُلّ شَيْطَانٍ مّارِدٍ لاّ يَسّمّعُونَ إِلَىَ الْمَلإِ الأعْلَىَ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" [الصافات: ٦-١٠]؛ فلفظ (الدنيا) تأنيث (الأدنى) وهو من الدنو أو الدناءة، ولذا يدل تعبير (السماء الدنيا) هنا على الطبقة الأقرب أو الأسفل من آفاق الأجرام، والمعنى أنه خلال الهروب بسرعة متزايدة نحو الفضاء الأقرب المميز بالكواكب يمر العابر بمنطقة الرجم بالشهب.

وتمييز الفضاء الأقرب للأرض بالكواكب (Planets) يتفق تماما مع المعرفة العلمية الحديثة بأنها بالفعل دون بروج النجوم (Stars) التي تتراكب في آفاق عظيمة الأبعاد تميزها عناقيد أو تجمعات (Constellation) أقربها مجموعات نجومية صغيرة ضمن حشود أكبر تشكل المجرة (Galaxy) ثم المجموعة المجرية المحلية تعلوها مجرات أعظم (Super-cluster) دون أشباه النجوم (Quasars) حيث يعجز البصر عن إدراك أي شيء يعدوها لانحساره بنفس سرعة الضوء الذي يصدره، ويفصلنا الجو عن تلك الآفاق السبعة كمنطقة بينية طبقية مثلها، وتتميز عن بقية السماء بتيارات الرياح ومسارات السحب، والشهب ظاهرة ضوئية تحدث في جو الأرض نتيجة الاحتكاك بالهواء فناسبها وصف الشهاب بالثاقب أي شديد الضوء، وبهذا

يحمل تعبير (السماء الدنيا) على الجو عند الإطلاق، وعلى الأفق الأدنى من آفاق الأجرام عند التخصيص بالكواكب.

وفي قوله تعالى: (وَزَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً...) [فصلت: ٩-١٢]، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لّلشّيَاطِينِ) [الملك: ٥]؛ ورد التشبيه بلفظ (مصابيح) في موضع (الشهب) مؤكدا على أنها ظاهرة ضوئية، ودل تعبير (السماء الدنيا) هنا بإطلاق دون تقييد بالأجرام على حدوث الشهب في الجو الأدنى تكوينا من آفاق الأجرام، وفسرت (المصابيح) في الآيتين الكريمتين بالنجوم، ولكن في العرف تسمى الشهب بالنجوم المارقة (Shooting Stars).

وتأكيد القرآن على أن ما ترجم به الشياطين هو الشهب، وهي ظاهرة ضوئية تحدث في الجو يقطع بنفي وصف الكون الممكن الإدراك أجمعه بأنه (السماء الدنيا)، وذلك في قوله تعالى: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيّنّاهَا لِلنّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلّ شَيْطَانٍ رّجِيمٍ إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مّبِينٌ [الحجر ١٦-١٨]، وقوله تعالى: "وَأَنّا لَمَسْنَا السّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رّصَداً [الجن ٨-٩].

والقول إذن بأن (السماء الدنيا) تعبير عن الكون كله، وأنها الوحيدة التي يمكن للإنسان أن ينظر إليها قول يعوزه الدليل، وما بني عليه من أن السماوات الست الباقية غيبية لا ترى يخالف صريح القرآن الكريم في إمكان النظر إلى كل السماوات بأدلة لا تدفع، منها قول الله جل وعلا: "قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي

السّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ"[يـونس ١٠١] وقولـه تعـالى: (أَوَلَمْ يَنْظُـرُواْ فِي مَلَكُـوتِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [الأعراف: ١٨٥] وقوله تعالى: "أَفَلَمْ يَنظُرُوَاْ إِلَى السّمَاءِ فَـوْقَهُمْ كَيْـفَ بَنَيْنَاهَـا وَزَيّنّاهَـا وَمَـا لَهَـا مِـن فُـرُوجٍ" [ق: ٦] قـال النحـاس: "السـماوات مرئيـة" ، وقـال الألوسـي: "ظـواهر الآيات والأخبـار ناطقـة بأن السماء مرئية" ، وفي قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَـلَ الْقَمَـرَ فِـيهِنّ نُـوراً وَجَعَـلَ الشّـمْسَ سِـرَاجا" [نـوح: ١٥-١٦]؛ ظـاهر التعبير أن أدنى سماوات الكون على حسب الترتيب في النظم هي التي تقع فيها الشمس ويقع القمر، وهو ما يتفق فلكياً مع تسمية أفق الكواكب الأدنى في آفاق الأجرام المرئية بالنظام الشمسي، حيث يتبع القمر الأرض ويتبع الكل الشمس، قال ابن جزي: "القمر.. في السماء الدنيا، وساغ أن يقول فيهن لما كـان في إحـداهن فهـو في الجميـع، كقولـك: فـلان في الأنـدلس إذا كـان في بعضها" ، وقال أبو حيان: "الضمير في فيهن عائد على السماوات والقمر في السـماء الـدنيا (منهـا)، وصـح كـون السـموات ظرفـاً للقمـر لأنـه لا يلـزم مـن الظرف أن يملأه المظروف؛ تقول زيد في المدينة وهو في جزء منها" .

ومرد الإشكال إلى الفهم بأن الشهب المعبر عنها في الآيتين الكريمتين تشبيها بالمصابيح لتوهجها هي النجوم الثوابت، ولكن المحققون قد دفعوا هذا الوهم، وقالوا بأن النجوم ثوابت في مواقعها لا ينقص عددها، وإنما المراد هو الشهب دونها كما هو ظاهر القرآن، وبذلك يسقط الاستدلال على أن سماوات الكون التي تميزها بروج الأجرام هي جميعا السماء الدنيا، قال الألوسي: "وإطلاق الرجوم على النجوم وقولهم رمى بالنجم يحتمل أن يكون مبنياً على الظاهر

للرائي، كما في قوله تعالى في الشمس: "تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ"، وهذه الشهب ليست هي الثوابت، وإلا لظهر نقصان كثير في أعدادها، بل هي جنس آخر غيرها يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: "وَلَقَدْ زَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لّلشّيَاطِينِ"؛ حيث أفاد أن تلك (المصابيح) هي (الرجوم) بأعيانها؛ لأنا نقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض.. والشهب من هذا القسم، وحينئذ يزول الإشكال" ، وبمثله قال كثيرون، فتأمل الدقة المذهلة في تعبير القرآن الكريم، بينما في العرف تُسمي الشهب نجوماً، ولا تميز لغة التخاطب بين النجوم والكواكب، والله تعالى أعلم.

هل الإعجاز العلمي من العلم؟

السؤال (٧٤٦٧٧): الحمد لله، والصلاة والسلام على حبيبنا مُحَمَّد وآله وصحبه، ومن والاه إلى يوم الدين. هل يوجد دليل على مشروعية الاشتغال بمسألة الإعجاز العلمي في القرآن، أو السنة النبوية الصحيحة؟ وهل نجد مثالاً في عهد (خير القرون) على ذلك؟ لأن الموضوع بين الذين يؤيدونه بشكل مطلق، والذين ينفونه بشكل مطلق أيضا ضاع عليهم الاحتكام إلى الشرع كما أمر بذلك العزيز الحكيم. و جزاكم الله خيراً.

الجواب:

لقد كان الرسل - عليهم السلام - قبل النبي مُحَمَّد — ﷺ- يبعثون إلى أقوامهم خاصة ولأزمنة محدودة، وقد أيدهم الله —تعالى- ببينات حسية تستمر محافظة على تأثيرها وقوة إقناعها مدة الزمن المحدد لكل رسول، فإذا حرَّف الناس الدين جدده الله ببعث رسول آخر مؤيدا ببينة جديدة، ولما ختمت النبوة بمحمد — ﷺ- وجعلت للناس كافة أيدها الله ببينة كبرى باقية هي القرآن الكريم، وقد ضمن الله حفظه من التحريف وتطالع الأجيال منه كل حين وجوها من الإعجاز تشهد بصدق رسالة التوحيد. ولا تتجلى وجوه الإعجاز في القرآن إلا بدراسته وتفسيره، وقد كان الصحابة — رضي الله عنهم- يتجنبون الجدل في القرآن، ويتحرجون عن تأويل ما لم يفسره النبي مُحَمَّد — ﷺ- وإذا اجتهد السلف صرحوا غالبا بعبارة العدول (والله أعلم بمراده).

قال ابن كثير: سأل رجل ابن عباس — رضي الله عنهما- عن "يوم كان مقداره ألف سنة" فقال له ابن عباس — رضي الله عنهما-: فما "يوم كان مقداره خمسين ألف سنة"؟، فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس — رضي الله عنهما-: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً.. كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وعن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة

وشرعا فلا حرج عليه، ولهذا رويت عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: "لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَه" [آل عمران ١٨٧]، ولِمَا جاء في الحديث: "من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار".

وعن عائشة – رضي الله عنها– قالت: "ما كان النبي – ﷺ– يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل عليه السلام".. فإن من القرآن ما استأثر الله – تعالى– بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله كما صرح بذلك ابن عباس – رضي الله عنهما– قال: التفسير على أربعة: أوجه وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله".

إن القرآن الكريم هو المعجزة الباقية لخاتم النبيين مُحَمَّد –ﷺ–، والمتحدى بلفظه ومعناه، ولهذا لا خلاف عند المحققين أن بيان وجوه الإعجاز فيه، وإن كان فرض كفاية على الأمة فهو فرض عين على القادرين، وقد اشتغلوا بدراسته خاصة في مجال البلاغة، وأفردوا له الكثير من المصنفات، واعتمدوا مصطلح "إعجاز القرآن"، وليس مصطلح (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) الذي شاع اليوم إلا امتداداً لجهود أعلام الأمة في ذلك المجال، غير أنه يختص بتقديم (البينة العلمية) على أن القرآن الكريم هو كلام الله؛ لأنه يستحيل أن يعلم بشر

زمن التنزيل بما أخبر به القرآن، وجاءت الكشوف العلمية بعد أكثر من عشرة قرون لتعترف بصدقه، وتقر به جميعاً رغم تعدد مجالاته ووفرته.

وقد أكثر السيوطي من ذكر تصانيف الإعجاز للسابقين عليه؛ منها: (إعجاز القرآن للخطابي، وللرماني ولابن سراقة، وللقاضي أبي بكر الباقلاني، ولعبد القاهر الجرجاني، وللإمام فخر الدين، ولابن أبي الإصبع واسمه البرهان وللزملكاني واسمه البرهان أيضا ومختصره له واسمه المجيد، ومجاز القرآن لابن عبد السلام والإيجاز في المجاز لابن القيم، ونهاية التأميل في أسرار التنزيل للزملكاني.. وبدائع القرآن لابن أبي الإصبع.. وأسرار التنزيل للشرف البارزي.. ومناسبات ترتيب السور لأبي جعفر بن الزبير، وفواصل الآيات للطوفي، والمثل السائر لابن الأثير.

قال ابن كثير: (ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء.. في غاية نهايات البلاغة، وكلما تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد ولا يمل منه العلماء، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" لفظ مسلم؛ وقوله

وإنما كان الذي أوتيه وحيا أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه.

وقال السيوطي: (لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه والترقي إلى أعلى درجاته.

وقال الخطابي: (وقلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم وهو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص منه إليه، قال الله تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله"، وقال تعالى: "الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم" الآية.

قلت: ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي – ﷺ– للطور حتى انتهى إلى قوله "إن عذاب ربك لواقع"، قال: خشيت أن يدركني العذاب، وفي لفظ: كاد قلبي يطير فأسلم، وفي أثر آخر أن عمر – رضي الله عنه– لما سمع سورة طه أسلم، وغير ذلك.

وقول أهل التحقيق إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد عن انفراده فإنه جمع كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق.

وقال القرطبي: (.. ومنها الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي. وقال ابن كثير: (يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم أن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى: "فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم".. ولهذا قال تعالى: "تنزيل من رب العالمين"؛ لأن الله -عز وجل- مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات، ولهذا قال: "وإنه لحق اليقين" أي الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب.

وقد ادخر القرآن الكريم كثيراً من الآيات للأجيال في عبارات معلومة الألفاظ، لكن الكيفيات والحقائق لا تتجلى إلا حينا بعد حين، يقول تعالى: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ" [ص: ٨٧ - ٨٨]، وقد فسر الطبري معنى الحين بقوله: (فلا قول فيه أصح من أن يطلق كما أطلقه الله من غير حصر ذلك على وقت دون وقت.

فلكل نبأ في القرآن زمن يتحقق فيه، فإذا تجلى الحدث ماثلاً للعيان أشرقت المعاني وتطابقت دلالات الألفاظ والتراكيب مع الحقائق، وهكذا تتجدد معجزة القرآن على طول الزمان، يقول العلي القدير: "وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" [الأنعام ٦٦و٦٧].

ونقل ابن كثير عن ابن عباس – رضي الله عنهما- تفسيره للمستقر بقوله: (لكل نبأ حقيقة، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين).

وقد تردد هذا الوعد كثيراً في القرآن الكريم بأساليب متعددة، كما في قوله تعالى: "ثم إن علينا بيانه" [القيامة: ١٩]، وقوله: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" [فصلت: ٥٣]، وقوله: "وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها" [النمل ٩٣].

قال ابن حجر: (ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وفي بلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه.

وقال الرافعي: (والكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون والمتكلمون، فإن كان ذلك قد وفى بحاجة (تلك) الأزمنة فهو لا يفي بحاجة هذا الزمان؛ إذ هي داعية إلى قول أجمع وبيان أوسع وبرهان أنصع، في أسلوب أجذب للقلب وأخلب للب وأصغى للأسماع وأدنى إلى الإقناع.

وقال مُحَمَّد رشيد رضا: (ومن دلائل إعجاز القرآن أنه يبين الحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيرون في فهمها والاستفادة منها مجملة، وإن كان فهم ما وراءها من التفصيل الذي يعلمه ولا يعلمونه يتوقف على ترقي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك.

وقال جوهري: (أما قولك كيف عميت هذه الحقائق على كثير من أسلافنا؟، فاعلم أن الله هو الذي قال: "سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ" وقال: "وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا".

إن الله لا يخلق الأمور إلا في أوقاتها المناسبة، وهذا الزمان هو أنسب الأزمنة.

والمدار على الفهم والفهم في كل زمان بحسبه، وهذا زمان انكشاف بعض الحقائق.

وفي قوله تعالى: "سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ" [الأنبياء: ٣٧] قال ابن عاشور: (وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين، وهي كما قال الرازي: أدلة التوحيد وصدق الرسول – ﷺ– ولذلك قال سبحانه "فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ". أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها، واستعجال المنكرين يعني كما قال الجوهري: استبعاد ماجاء في هذه الآيات من الأمور العلمية التي أوضحها علماء العصر الحاضر، فهم يستبعدونها طبعاً؛ لأنهم لا يعقلونها، فقال الله –تعالى– لا تستبعدوا أيها الناس "سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ" فإذا لم تفهمها أمم سابقة فسيعرفها من بعدهم، فقد ادخرنا هذه الأمور لأمم ستأتي لتكون لهم آية علمية على صدقك فتكون الآيات دائما متجددة).

وقد رافق الوعد في القرآن بتجلي دلائل التوحيد فيض من التفصيلات العلمية مع دعوة صريحة للنظر في الكون، واستجوابه عن عجائب القدرة وبديع الصنع ودلائل الوحدة، والنظم المقدرة وبينات القصد منذ بَدء الخلق، مما يؤكد تناوله لنفس موضوعات العلوم الطبيعية اليوم، لأن الله تعالى لا يأمر بالتطلع والتأمل والنظر إلا إلى ما يمكن أن يبلغه علم المخاطبين أو يدركه النظر، وذلك كقوله

تعالى: "قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" [يونس: ١٠١]، وقوله: "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا" [ق:٦]، وقوله: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" [العنكبوت: ٢٠]، وهذه النصوص الكريمة تؤكد أن العلم بخلق الله طريق إلى معرفة الله، وهذا العلم أيضا تأهيل لإدراك صدق ما كشفه القرآن الكريم من أسرار الخلق بينة على التنزيل وصدق الرسول مُحَمَّد – ﷺ–، ولعل هذا يفسر ربط القرآن الكريم بين أدلة صدق حديثه وبين الأمر إلى التطلع في الكون وإدراك خفايا الخلق، كما قال تعالى: "أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ" [الأعراف: ١٨٥].

لقد جعلت البشرية اليوم العلم بخلق الله سبيلا إلى معرفة الحق فإذا بها على موعد مع المعجزة الخالدة، وإذا ببينات الوحي والتوحيد في القرآن الكريم تتفجر في عصر العلم، وهكذا تسطع بين أيدينا اليوم بينة الوحي المنزل على نبينا مُحَمَّد – ﷺ–بما نزل فيه من علم إلهي بين أسرار الكائنات.

إن العلم بخلق الله سبيل إلى معرفة الله، وطريق لبيان إعجازه في كشف خفايا الخلق، والتي جاءت الكشوف العلمية بعد قرون لتعترف بصدقها وتقر بها جميعا بينة على التوحيد وصدق نبوة مُحَمَّد – ﷺ–، يقول العلي القدير: "لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ" [النساء: ١٦٦].

قال ابن كثير: (أي فيه علمه من البينات والهدى، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل.

ومثله قوله تعالى: "فاعلموا أنما أنزل بعلم الله" [هود: ١٤]، وقوله تعالى: "وبالحق أنزلناه وبالحق نزل" [الإسراء: ١٠٥]: أي متضمنا للحق، متضمناً علم الله.

قال الألوسي: (أي متلبسا بعلمه المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

تطور الجنين كما حكاه القرآن

السؤال (٧٥٤١٩): السؤال السلام علبكم ورحمته وبركاته.

أريد من فضيلتكم إعطائي تفسيراً علمياً دقيقاً عن تطور الجنين في بطن الأم كما جاء في القرآن، مع ما جاء في العلم الحديث، وهل هو متوافق مع العلم؟ وجزاكم الله خيراً.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

إجابة على السؤال حول مراحل تطور الجنين البشري في القرآن الكريم، ومدى تطابقها مع المعطيات العلمية الحديثة؛ أقول مستعينا بالله العلي العظيم، القادر وحده على كل شيء:

ليس غرض القرآن أن يعطي المخاطب درساً في علم الأجنة على نحو المقررات الدراسية اليوم، وإنما يمد بصره في نظرة أوسع من آفاق المألوف تعيده إلى البداية، حيث لم يكن شيئاً لتقوده إلى اليقين بقدرة الله؛ يقول العلي القدير: "أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً" [مريم: ٦٧]، وفي ثنايا العرض ترد في عفوية جملة من الحقائق التي لم يكن يعلم بها أحد زمن التنزيل؛ يقول العلي القدير: "هَلْ أَتَىَ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مّنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مّذْكُوراً. إِنّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً" [الإنسان: ١-٢]، فلم يكن يعلم أحد بتكون الجنين من بويضة مخصبة Fertilized egg تماثل "نطفة" أي قطرة ماء غاية في الضآلة، ذات أخلاط تحتوي على مكونات وراثية من الأبوين؛ نسميها اليوم كروموزومات Chromozomes.

ويكفيك أن تعرف أن الإدراك بتكون الجنين من أخلاط من الجنسين؛ أي أمشاج، لم يتحقق إلا بعد عقود من اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، وأول من استخدم عدسة بسيطة في دراسة أجنة الدجاج هو هارفي Harvey عام ١٦٥١م، ولصعوبة معاينة المراحل الأولى استنتج أن الأجنة ليست إلا إفرازات رحمية، وفي عام ١٦٧٢، اكتشف جراف Graaf حويصلات المبايض Graafian Follicles وعاين حجيرات في أرحام الأرانب الحوامل تماثلها، فاستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم وإنما من المبايض، ولم تكن تلك التكوينات الدقيقة التي عاينها جراف سوى تجاويف في كتل الخلايا الجنينية الأولية Blastocysts، وفي عام ١٦٧٥م عاين

مالبيجي Malpighi أجنة في بيض الدجاج، واعتقد بأنه يحتوى على كائن مصغر ينمو في الحجم فحسب، ولا يتخلق في أطوار، وباستخدام مجهر أكثر تطوراً اكتشف هام Hamm وليفنهوك Leeuwenhoek الحوين المنوي عام ١٦٧٧م، وظنا أيضاً أنه يحتوي على الإنسان مصغراً، وفي عام ١٨٢٧م عاين فون بير von Baer البويضة، وأخيراً انتهى الجدل حول فرضية الخلق المكتمل، وتأكدت أهمية كل من الحوينات المنوية والبويضة، واستقرت حقيقة التخلق في أطوار، وفي عام ١٨٧٨م اكتشف فليمنج Flemming الكروموزومات، وفي القرن العشرين تم التحقق نهائياً من احتواء البويضة المخصبة على تلك الأخلاط الوراثية، والتخلق من الذكر والأنثى [The Developing Human, Keith L. Moore, Fourth ed.,1988, Saunders Comp., Toronto, P: 7-11, 14.].

وبديهي أن يسعى المعاند إلى التهرب من الحجج بكل وسيلة ممكنة، لكن تأكيد القصد في البيان بالتثنية يغلق عليه الأبواب، فترسمه المخيلة مغلق العينين عن الحقيقة الساطعة، يقول العلي القدير: "يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ" [الحجرات: ١٣]، قال القرطبي: بيَّنَ الله –تعالى– في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى..

وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه.. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل"[تفسير القرطبي ج: ١٦ ص: ٣٤٢و٣٤٣.].

وفي قوله تعالى: "فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً"؛ سبقت وظيفة السمع في مقام بيان أطوار التخليق وظيفة البصر، ووظيفة السمع خلال تكون الجنين تسبق بالفعل وظيفة البصر، حيث تبدأ العمل ابتداء من الشهر الخامس بينما يتأخر البصر، فهل هي مصادفة أن يتفق النظم مع الواقع، أم هو الإحكام في البيان والبينة على التنزيل؟ وهكذا كلما غصت أكثر نحو الأغوار، كان رصيدك أكثر من دلائل الإحكام في البيان الموافق الحقيقة من كل وجه.

ولصعوبة الرؤية في المجاهر الأولية رسم داليمباتيوس Dalempatius الإنسان كاملاً داخل رأس الحوين المنوي عام ١٦٩٩م، أي قبل بداية القرن ١٨ بعام واحد فقط، بدون إدراك لتخلق الجنين من الأبوين في أطوار، بينما يعلن القرآن الكريم –بجلاء– منذ القرن السابع الميلادي بتخلق الجنين في أطوار، يقول العلي القدير: ﴿مّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح: ١٣-١٤].

وقد تتلاحق المشاهد في سرعة خاطفة لتبرز النقلات الواسعة في إنجاز المشروع الخلقي والقدرة الفائقة وفق تقدير غاية في الإحكام من مكونات ضئيلة، ليس لها في مرأى العين وجود، فتتجلى القدرة المبدعة في جلاء يعمق اليقين بقدرة الخالق وإمكان البعث، يقول العلي القدير: "قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيّ شَيءٍ خَلَقَهُ. مِن نّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدّرَهُ ثُمّ السّبِيلَ يَسّرَهُ" [عبس: ١٧-٢٠]، ولكن العجيب أن تتخفى الحقائق في ثنايا العرض فلا يكاد يلمحها إلا

العالمون، فبعد تكون البويضة الملقحة مباشرة يتكون البرنامج الوراثي، وتقدر بالفعل سمات الجنين.

ويرجع القرآن بالإنسان إلى أصول أولية للبويضة المخصبة نحو السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف، وأصول جيولوجية أبعد كالطين، ليدرك أن معرفة الله وعبادته هي القصد من كل تكوين، يقول العلي القدير: "الّذِيَ أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ. ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مّن مّآءٍ مّهِينٍ" [السجدة: من ٧-٨].

وندرك اليوم أهمية المني في الإنجاب، ونعرف أن نخبة أو سلالة هي التي تنجح بالفعل في بلوغ البويضة، ويرجع القرآن بالإنسان إلى أصل ضئيل في مرأى العين، ويمضى به نحو قاع الضآلة، ثم ينقله فجأة إلى وليد مكتمل القسمات ليشهد بالقدرة المفزعة، يقول العلي القدير: "أَلَمْ نَخْلُقكّم مّن مّآءٍ مّهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مّكِينٍ. إِلَىَ قَدَرٍ مّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ" [المرسلات: ٢٠-٢٣]، وفي قوله تعالى: "كَلاّ إِنّا خَلَقْنَاهُم مّمّا يَعْلَمُونَ" [المعارج: ٣٩]؛ يشير إلى الإبهام بضآلة الأصل، ويضاعف الإعراض قدر الجريمة، ويجعل المتهم شاهد عيان يعرف بنفسه الحكم.

ولا يقوم بالإخصاب إلا مكون منوي واحد من السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف (حوالي ٦٠ مليون\ ميلليليتر)، يقول العلي القدير: "أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مّن مّنِيّ يُمْنَىَ" [القيامة: ٣٦-٣٧]، والمدهش أن يعدل القرآن في وصف مكونات المني المماثل للماء إلى اسم

الفاعل "دافق" بدلا من اسم المفعول قبل أن نعاين بالمجهر حركته الذاتية، يقول تعالى: "فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مّاءٍ دَافِقٍ" [الطارق: ٥-٦].

ويحتوي الحوين المنوي على نصف عدد الكروموزومات، وتحتوي البويضة على النصف المكمل، والحوينات إما أن تكون ذات شارة تأنيث؛ لوجود كروموزوم الجنس فيها على هيئة (Y) أو تكون ذات شارة تأنيث لوجوده على هيئة (X) بينما لا تملك البويضة إلا شارة تأنيث، ولذا يرجع تحديد جنس الجنين إلى المني فحسب، وهو ما تطالعه في قوله تعالى: "وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالأُنثَىَ. مِن نّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىَ" [النجم: ٤٥-٤٦]، وقوله تعالى: "أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مّن مّنِيّ يُمْنَىَ. ثُمّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّىَ. فَجَعَلَ مِنْهُ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالأُنثَىَ" [القيامة: ٣٧-٣٩].

ويبين القرآن بالتفصيل تباين أطوار تكون الجنين في تعبيرات وصفية بالغة الإحكام، يقول العلي القدير: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مّن طِينٍ. ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مّكِينٍ. ثُمّ خَلَقْنَا النّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" [المؤمنون ١٢-١٤].

ومشهد محاكمة المعاند مألوف خلال عرض مثل تلك الحقائق فضحاً لما في طويته من مكابرة وعناد، وترى غالباً ذلك الناكر في زاوية من المخيلة يترقب إصدار الحكم يشاهد مع الحضور دلائل التنزيل، وفي المحاكمة يجعلك التعبير تعجب من الجسارة وجسامة الجريمة آملا أن ينال المجرم أقصى عقوبة خاصة مع النقلة العاجلة التي تجلي عناية الله وقدرته، يقول تعالى: "خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن

نّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مّبِينٌ" [النحل: ٤]، ويقول تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنّا خَلَقْنَاهُ مِن نّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مّبِينٌ" [يس ٧٧]، حقائق مبهرة، وتألق في مهابة، فأين المهرب إذن!، يقول العلي القدير: "فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لّلْعَالَمِينَ. لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ" [التكوير: ٢٦-٢٨].

السؤال (٧٦٣٨١): تفسير قوله:

السؤال السلام عليكم.

أنا إنسان طبيعي، لست متخصصاً في علوم الدين، ولكن وجهة نظري – باعتباري مسلماً ومرت علي آيات قرآنية– لماذا لا تكون الأنعام أنزلت من عند الله ولم تخلق على الأرض مثل نزول الحديد؟ والدليل على ذلك أن الله أنزل الناقة على سيدنا صالح، وأنزل الكبش على سيدنا إبراهيم، وإننا ننتظر حتى يكتشف هذه الحقيقة غيرنا، وللأسف كل اكتشاف جديد نقول بأنه موجود في القرآن، ونسارع بقولنا هذا دون النظر إلى أمور غيبية لا نعلمها، وكأننا نطلب شهادة الكفرة بأن ديننا هو من عند الله، الموضوع طويل وأكتفي بهذا. والسلام عليكم.

الجواب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

جواباً على السؤال: لماذا لا يكون "إنزال الأنعام" في قوله تعالى: "وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" [الزمر ٦]؛ دلالة على تكونها خارج الأرض دون بقية الأحياء؟، وأجيب مستعيناً بالله العلي القدير سائلاً العون والتوفيق:

الأصل هو حمل التعبير في القرآن الكريم على ظاهره، إلا بقرائن صارفة تبيح حمله على ضرب المثل، وقد أكثر القرآن الكريم من التمثيل كأبلغ سبيل لبيان المراد بحالة مماثلة، نحو ما يصرح به قوله تعالى: "وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلَيِمٌ"[النور: ٣٥]، وقوله تعالى: "وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ"[الحشر: ٢١]، وقوله تعالى: "وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ" [إبراهيم: ٢٥]، وأما قوله تعالى: "وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاّ الْعَالِمُونَ" [العنكبوت: ٤٣]؛ فيقصر الانتفاع بتلك الأمثال على العالم بالله عن تفكر وإدراك.

وفي قوله تعالى: "يَا أَيّهَا النّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مّن رّبّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مّبِيناً" [النساء: ١٧٤]، ظاهر التعبير (وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مّبِيناً) انتقال ضوء الشمس نحو الأرض، ولكن السياق يتعلق بإقامة البرهان في مجال الدين بقرينة التعبير (يَا أَيّهَا النّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مّن رّبّكُمْ).

ولذا لم يختلف المفسرون في تأويل لفظ (النور)، وصرفه عن ظاهر دلالته وبيان أن المراد به هو القرآن الكريم.

قال البيضاوي: "عنى بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة"[تفسير البيضاوي (ج٢ص٢٨٥)].

وقال الثعالبي: "البرهان الحجة النيرة الواضحة التي تعطي اليقين التام، والنور المبين يعني القرآن"[تفسير الثعالبي (ج١ص٤٣٥)].

وقال السعدي: "يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة ويوضح لهم المحجة؛ فقال (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) أي حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه وتبين ضده، وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الأفقية والنفسية، لقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتّىَ يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ)،.. (وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)، وهو هذا القرآن العظيم الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره" [تفسير السعدي (ج١ص٢١٧)].

فإنزال القرآن –إذن– بلفظ النور تصوير للتشريف بجامع جلاء الطريق والاهتداء، وهكذا ترى أن التصوير يجسد الدلالة ويطلق العنان لتوارد فيض من المضامين، فيبلغ بالتعبير أعلى المراتب في البيان.

وقد ورد فعل (الإنزال) ليفيد الانتقال من الأعلى نحو الأسفل، كما في قوله تعالى: "وَأَنزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً"[البقرة: ٢٢]، وأما قوله تعالى: "وَأَنزْلْنَا الْحَدِيدَ"[الحديد: ٢٥]؛ فيمكن حمله على النزول إلى لب الأرض لانتفاء ما يصرف عن الظاهر، ولا يجادل اليوم أحد بالفعل أن معظم لب الأرض حديد، فطابقت شهادة الواقع صريح التعبير، ولكن القرائن الصارفة قد تمنع حمل (الإنزال) على الظاهر، كأن يكون الموصوف من المعنويات، كما في قوله

تعالى: "هُوَ الّذِيَ أَنزَلَ السّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ"[الفتح: ٤]، والقرينة أن السكينة حالة شعورية وليست تكويناً مادياً، ولذا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه صرف النزول إلى (الجعل) بقوله: "(أَنزَلَ السّكِينَةَ) أي جعل الطمأنينة"[تفسير ابن كثير (ج٤ص١٨٥)].

ومثلها (النعاس) في قوله تعالى: "ثُمّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مّن بَعْدِ الْغَمّ أَمَنَةً نّعَاساً يَغْشَىَ طَائِفَةً مّنْكُمْ"[آل عمران:١٥٤]. فليس النعاس بالمثل جسماً مادياً ليصح وصفه بالنزول الحسي، وإنما يصح التمثيل بالمطر ينقذ الأرض العطشى خاصة مع العدول عن التعبير بفعل الإنزال إلى التصوير بالتغشية في قوله تعالى: "إِذْ يُغَشّيكُمُ النّعَاسَ أَمَنَةً مّنْهُ وَيُنَزّلُ عَلَيْكُم مّن السّمَاءِ مَاءً"[الأنفال:١١]، فتأمل الجناس بين النزول المعنوي للنعاس، والحسي للمطر بجامع النصرة والتثبيت، وكأن وقوع النعاس بما صاحبه من زوال الخوف غيثًا أحاط بهم فأزال خوفهم من الهلاك، ومثله قوله تعالى: "وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَم وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً"[النساء: ١١٣]. فليست الحكمة جسما لتنزل حسياً، ولم ينزل الكتاب صفحات ورقية؛ وإنما الإنزال بياناً للفضل ويفسره التعليم.

وفي وصف بعثة النبيين -عليهم السلام أجمعين- في قوله تعالى: "كَانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ"[البقرة: ٢١٣]، لا تدل المعية بنزول الكتاب معهم على هبوطهم من السماء، وإنما فعل البعث يصرف (الإنزال) إلى التصوير تشريفاً لهم وبياناً لوحدة الرسالة لتوحيد الكتاب، ومثله قوله تعالى: "فَالّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزّرُوهُ

وَنَصَرُوهُ وَاتّبَعُواْ النّورَ الّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الأعراف: ١٥٧].

وأما قوله تعالى: "يَابَنِيَ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ"[الأعراف: ٢٦]؛ فلا يفيد بالمثل أن ما نلبسه هبط من السماء، لأن مصدره معلوم كالصوف من الحيوان والقطن من نبات الأرض، ولذا اجتهد المفسرون في صرف (أنزلنا) عن معنى الهبوط، قال الشوكاني: "عبر سبحانه بالإنزال عن الخلق أي خلقنا لكم لباساً"[تفسير فتح القدير للشوكاني (ج٢ص١٩٧)].

وقال الجصاص: "وإنما قال أنزلنا لأن اللباس يكون من نبات الأرض أو من جلود الحيوان وأصوافها، وقوام جميعها بالمطر النازل من السماء"[أحكام القرآن للجصاص (ج٤ص٢٠٣)].

وقال السمعاني: "وفي معنى (أنزلنا عليكم) ثلاثة أقوال، أحدها: خلقنا لكم، والثاني: ألهمناكم كيفية صنعه، والثالث: أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يتخذ لباس"[تفسير زاد المسير لابن الجوزي (ج٣ص١٨١)].

وقد يصح أن معنى (الإنزال) في الملابس باعتبار الأصل وهي ترجع للمطر، وقد يصح نزول القرآن باعتبار العلاء المعنوي تشريفا، ويصح الجمع بين الحالتين بالتمثيل بالغيث ينزل ليغشي الأرض العطشى وينقذها من الهلاك.

ومن نعم الله –تعالى– على العرب الأولين أن هيأ لهم حيوانات الرعي التي كانت عماد حياتهم في البادية خاصة الأغنام والمعز والإبل والبقر، ولكنهم ضيقوا على أنفسهم بتقاليد تمنع الانتفاع ببعضها، ومن بالغ الرحمة إذن أن

يشدد القرآن على تحريرهم من تلك التقاليد وإباحة تلك الأنعام لهم في بيان مستفيض حاسم؛ يقول تعالى: "وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشّيْطَانِ إِنّهُ لَكُمْ عَدُوّ مّبِينٌ. ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مّنَ الضّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذّكَرَيْنِ حَرّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ"[الأنعام: ١٤٢-١٤٤].

ولفظ (الأنعام) اسم صفة لا اسم ذات ومنه (النعمة)، لذا سميت أيضا بلفظ (النّعَمِ) في قوله تعالى: "يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مّتَعَمّداً فَجَزَآءٌ مّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النّعَمِ"[المائدة: ٩٥]، ووصفها بالأنعام والنّعَمِ والرزق المباح للأكل يجسد بالتسمية نعمة الله تعالى عليهم، ويؤكد الإنعام وصف إيجاد الأنعام بلفظ (الإنزال) في قوله تعالى: "وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ"[الزمر: ٦].

وقد يصح أن يكون فعل الإنزال في حالة النعمة أو النقمة باعتبار العلاء المعنوي بيانا لمشيئة الله تعالى وتقديره.

ويصح التمثيل بالمطر بلفظ (الإنزال) تجسيداً للنعمة؛ لأن نزوله هو أول مشهد متبادر لفعل الإنزال يبش له العربي الأول، ويشعره بالامتنان، ويجسد له رحمة الله تعالى، وهم محتاجون للأنعام تماما كاحتياج الأرض العطشى للمطر، واستبدال فعل (الإنزال) بأفعال (الخلق) و(الجعل) و(الإمداد) في بيان سبق التهيئة بالأنعام قرينة جلية تصرفه عن الظاهر الحسي إلى معنى الإيجاد؛ كما في قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنّا خَلَقْنَا لَهُم مِمّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا

مَالِكُونَ"[يس: ٧١]، وقوله تعالى: "اللهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ"[غافر: ٧٩]، وقوله تعالى: "أَمَدّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ"[الشعراء: ١٣٣]، وتسمى الكوارث نوازل، وتوصف الأحداث تصويرًا بالوقوع والمجيء والإتيان، ولا يعني شيء من ذلك بالضرورة هبوطها من السماء.

قال البغوي: "(وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) معنى الإنزال هاهنا الإحداث والإنشاء، كقوله تعالى (أنزلنا عليكم لباسا)"[تفسير البغوي (ج٤ص٧٢)].

وقال السمعاني: "أي وخلق لكم من الأنعام..، وهو مثل قوله تعالى (أنزلنا عليكم لباسا) أي خلقنا"[تفسير السمعاني (ج٤ص٤٥٨)].

وقال الكلبي: "وأما (أنزل) ففيه ثلاثة أوجه الأول:.. خلق، الثاني:.. قضى،.. الثالث أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات، فتعيش منه هذه الأنعام، فعبر بإنزالها عن إنزال أرزاقها وهذا بعيد"[التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (ج٣ص١٩١)].

ولا يعني تعبير (الإنزال) إذن هبوط الأنعام من السماء دون كافة الأحياء، والتمثيل بالغيث يجمع كل ما قيل من معان، فيجسد عناية الله –تعالى– ويتضمن معنى التنزيه وسبق التهيئة والإنعام على العباد المحتاجين، ولكن قد تتحول النعمة نقمة بيانا لمشيئته تعالى ويصبح النزول غضب والمطر عقوبة، والواجب التوجيه اللائق لكل لفظ بما لا يخالف الواقع والنظرة الشاملة لكل الآيات وتقصي القرائن في كل سياق، وهو منهج الأعلام على مر الأيام، والله تعالى أعلم.

دحض الدعوى بأن الإعجاز العلمي من إخبار الشياطين

السؤال (٧٨٦٥٣): ما الرد على شبهة من يقول: إن الذي أخبر النبي – ﷺ– بهذا الإعجاز العلمي هم شياطين الجن، كمسألة برزخ البحرين مثلا، وبالتالي فلا يصح الاستدلال بهذا على صحة هذا الدين؛ لأن الشياطين لهم قدرة على الغوص في أعماق البحار، كما أخبرنا الله تعالى عن شياطين سليمان. وجزاكم الله خيراً.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

جوابا على فرية معرفة الشياطين التي سخرها الله تعالى للنبي سليمان –عليه السلام– بحقائق البحار ناهيك عن أسرار الكون وخفايا خلق الإنسان التي فاض بها القرآن الكريم فلم تهمس بها إلا للنبي مُحَمَّد –ﷺ– أقول مستعينا بالله العلي القدير:

كان الكندي جاري ميلر قسيساً يدعو للنصرانية وبحث في القرآن منذ عام (١٩٧٨م) لعله يجد فيه مطعنا فإذا به يعلن إسلامه، لقد توقع أن يجد حديثا مضطربا يحمل سمات محلية ويؤرخ للنبي مُحَمَّد –ﷺ– وأسرته، فإذا به يجد آفاق التعبير ممتدة لتشمل العالم أجمعه وتكثر فيه المعاتبات للنبي –ﷺ– نفسه

بخلاف ما يتوقع من كاتب يمجد نفسه، كما في قوله تعالى: "وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقَاوِيلِ لأخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُمْ مّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ" [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وعلى حين ذكر النبي عيسى -عليه السلام- بالاسم مرات عديدة لم يذكر النبي مُحَمَّد -ﷺ- سوى أربع مرات فقط، ولم يرد ذكر لأحد من أفراد أسرته بينما ورد بالاسم ذكر خادمه المتبنى، وسميت سورة كاملة باسم مريم العذراء عليها السلام، وقابلية التجربة لكثير مما لا يدركه بشر حين تلقيه والوارد في تحدي الواثق جعلت الاكتشافات الحديثة أدلة على الوحي.

وهكذا يمكن بلوغ الحقيقة بالالتزام بمعيار مطابقة الواقع لكل قابل للتمحيص، وهي القاعدة التي تحدى بها القرآن تعريضا بالمنسوب سواه للوحي في قوله تعالى: "أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً" [النساء ٨٢].

ولذا يقول الدكتور ميلر المبشر السابق: (قبل بضع سنوات وصلتنا قصَّةٌ إلى تورونتو بكندا عن رجلٍ كان بحَّاراً في الأسطول التجاريّ أعطاه أحد المسلمين ترجمةً لمعاني القرآن الكريم ليقرأها، ولم يكن هذا البحَّار يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام لكنَّه كان مهتمّاً بقراءة القرآن الكريم، وعندما أنهى قراءته عاد إلى المسلم وسأله: هل كان مُحَمَّد هذا بحَّاراً؟، فقد كان الرجل مندهشاً من تلك الدِّقَّة الَّتي يصف بها القرآن البحر، وعندما جاءه الرد بالنفي أعلن إسلامه، لقد كان مُتأثِّراً بالوصف القرآنيّ للأسرار البحريَّة، فالوصف الَّذي جاء في القرآن عن البحر لم يكن شيئاً يستطيع أن يكتبه أيُّ كاتبٍ من محض خياله،

وظلمات البحر العميق والموج الَّذي من فوقه موجٌ من فوقه سحاب لم يكن شيئاً يمكن لأحدهم تخيُّله، بل إنَّه وصفٌ دقيق مصدره من يعرف حقاًّ كيف هو الواقع، ولا يمكن نسبة تلك المعرفة لمحمد -ﷺ- نفسه ولا لبشر سواه، هذا مثل واحد على أنَّ هذا القرآن لا يمكن أن يكون مصدره قبل أربعة عشر قرناً مضت غير الله الخالق سبحانه وتعالى نفسه).

ويضيف الدكتور ميلر قائلاً: "الآن نأتي إلى الزعم الرخيص لتفسير دلائل نبوة مُحَمَّد -ﷺ- بأن الشياطين هي التي تعينه، والله تعالى يقول: "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" [النحل: ٩٨]، أرأيتم!، كيف يمكن أن يؤلف الشيطان كتابا ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب عليك أن تتعوذ مني!!، إن في هذه الآية رد منطقي لكل من قال بهذه الشبهة، وهناك قصَّةٌ مشهورة في الإنجيل تذكر كيف أنَّ بعض اليهود كانوا شهوداً حين أقام عيسى -عليه السلام- ميتاً فقام الرَّجل ومشى في طريقه، وحين رأوا المشهد قال بعض الشُّهود من اليهود مُنْكِرِيْن (هذا هو الشيطان، الشيطان هو الَّذي ساعده)، وهذه القصَّة تلقى الآن كثيراً للموعظة في الكنائس في جميع أنحاء العالم، والنَّاس يذرفون دموعاً غزيرةً لسماعها قائلين (آه لو كنت هناك فما كنت لأكون غبيّاً مثل اليهود)، ومع هذا فإنَّ هؤلاء النَّاس يفعلون ما فعله اليهود تماماً حين يُعرض عليهم شيءٌ من دلائل نبوة مُحَمَّد -ﷺ- وكل ما يستطيعون قوله هو (الشيطان فعل ذلك، الشيطان هو الَّذي ألَّف هذا الكتاب) لأنَّهم حينئذ قد حُشِروا في الزَّاوية وحين لا يملكون أيَّ إجابةٍ مقبولة فإنَّهم يلجأون إلى أرخص مهرب يظنونه متاحا لهم، ولكن الموسوعة الكاثوليكيَّة الجديدة تُصرّح بنزاهة

قائلة: (عبر القرون الماضية قُدِّمت نظريات كثيرةٌ عن أصل القرآن واليوم لا يوجد إنسانٌ عاقل يقبل بأيٍّ منها)، ومؤكَّدٌ أنَّهم قد استنفذوا كل النظريات لإنكاره ولم يستطيعوا إيجاد دليل واحد على أنَّه ليس وحيا من الله تعالى، وبديهي أن يسبب هذا التصريح للمسيحي المقلد وعكة، لكنه قد لا يملك أن يكون حراً في القرار مناقضاً للخضوع الَّذي تطلبه الكنيسة بلا سؤال، وقد قام حديثا هانز أحد قادة الكنيسة بدراسة القرآن وأعلن رأيه بجسارة الباحثين الشرفاء قائلا: (إن الله قد كلم الإنسان من خلال مُحَمَّد)، هذا بالتأكيد شيءٌ للتأمُّل لأولئك الَّذين يعقلون" .

وتاريخ الثورة العلمية الحديثة يكاد ألا يتجاوز القرون الثلاثة الأخيرة، ولم يسجل التاريخ للشيطان اكتشافا واحدا في مجال العلوم الطبيعية، حيث سادت الخرافات قبل تلك الفترة، والحقائق العلمية المكتشفة حديثا نتاج جهود بشرية يعرف تاريخ الاكتشاف أصحابها ولا يوجد في سجلاته ذكرٌ لكلمة الشيطان فليست من مفردات العلوم الطبيعية، وربما تبرأ الشيطان نفسه من كثير مما ينسب إليه من مزاعم بلا دليل مثلما جعلوه سببا للأوبئة قبل اكتشاف الجراثيم، وإذا بحثت في المدونات التي تسبق القرآن كذلك فلن تجد من مهامه إحراز السبق في مجال اكتشاف الحقائق العلمية، وإنما بث أفكار سوء تتسلط على الإنسان لتضليله ودفعه لارتكاب الشرور، واقترن اسمه في كثير من الثقافات بالغواية والرذيلة والكذب والتلفيق والخداع والتزييف والباطل، وكان وراء كل إثم يرتكبه الإنسان والرائد في طمس الحقائق، فهل تاب وانعكست وظيفته رأسا على عقب فارتضى أن تنسب إليه حقائق في القرآن لم يدركها

أحد إلا بعد حوالي عشرة قرون لكي يدعم النبوة الخاتمة؛ أم أن هذا شاهد عيان على أن الشيطان لم يقدم استقالته بعد في التضليل والافتراء لطمس الدليل!.

وهل يليق بمحقق نزيه أن يقبل بأن تلك الشياطين المسخرة للنبي سليمان – عليه السلام– خاصة قد نجحت أن تخدعه نفسه وتخفي عنه تلك الحقائق العلمية المبهرة التي فاض بها القرآن متفردا، فلم يرد لها ذكر قط في أي مدونة تسبقه!، وكيف تعلم بحقائق الكون وتجهل مجرد موته فتظل تمارس مهام السخرة قائمة بأرقى صناعات عصره، يقول العلي القدير: "وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رّاسِيَاتٍ اعْمَلُوَاْ آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مّنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ. فَلَمّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلّهُمْ عَلَىَ مَوْتِهِ إِلاّ دَابّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمّا خَرّ تَبَيّنَتِ الْجِنّ أَن لّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" [سبأ: ١٢-١٤]، ويقول تعالى: "وَالشّيَاطِينَ كُلّ بَنّآءٍ وَغَوّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرّنِينَ فِي الأَصْفَادِ" [ص: ٣٧- ٣٨]، فكيف ينبغي بعمال تحت سوطه وفي ظل مهابته إن كانوا حقا مهرة في غير تلك الصناعات أن يفوقوه علما ويخفوا عنه سرا!.

وليس العلم بخفايا التكوين من مهام الشيطان وإنما الإغواء والتضليل بمكر ودهاء عن منهج المرسلين في عبادة الله تعالى وحده وفق قوله تعالى: "لأَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمّ لآتِيَنّهُمْ مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" [الأعراف: ١٦- ١٧]، وقوله تعالى:

"يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً" [النساء: ١٢٠]، وقوله تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِيّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً " [الأنعام: ١١٢]، وفي مشهد تبرأ الشيطان نفسه ممن أضلهم تتجلى حقيقة مهمته في قوله تعالى: "وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدتّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مّن سُلْطَانٍ إِلاّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ مّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" [إبراهيم: ٢٢]، وحتى في مهمته تلك رغم المهارة لا يقع الكل فرائس وفق قوله تعالى: "إِنّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىَ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَىَ رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ إِنّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىَ الّذِينَ يَتَوَلّوْنَهُ وَالّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ" [النحل: ٩٩-١٠٠]، وقوله تعالى: "إِنّ كَيْدَ الشّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً" [النساء: ٧٦]، وليست فرية نسبة القرآن للشياطين سوى ترديد عاجز لحيرة عتاة المكابرين الأولين التي نفاها قوله تعالى: "وَمَا تَنَزّلَتْ بِهِ الشّيَاطِينُ. وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنّهُمْ عَنِ السّمْعِ لَمَعْزُولُونَ" [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، والبينة هي المضمون في الدعوة للفضيلة لا الرذيلة كما قال تعالى: "هَلْ أُنَبّئُكُمْ عَلَىَ مَن تَنَزّلُ الشّيَاطِينُ تَنَزّلُ عَلَىَ كُلّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ" [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢].

ومجمل القول أن فرية نسبة القرآن للشيطان دليل على العجز واستنفاذ كل الأعذار عناداً ومكابرة وتهربا من الحقيقة بادعاء يعوزه الدليل، ولابد أن تعرض للفطين تساؤلات:

(١) إذا كان الشيطان هو المصدر فكيف ذم نفسه في القرآن؟.

(٢) وإذا كان ذلك المصدر أكيدا فلماذا حاروا إذن فلفقوا معه جملة افتراضات ليس منها الوحي من الله القادر على كل شيء وكأنه تعالى ليس له عندهم وجود؟.

(٣) وإذا كان الشيطان رأسا لكل زائف ورذيلة يرتكبها الإنسان فكيف أيد كتابا لا تجد فيه إلا الحقيقة والدعوة إلى الفضيلة؟.

(٤) وإذا كان عالماً بحقائق التكوين قبل عصر الاكتشافات العلمية بقرون فلماذا خص بها دون الجميع خاتم النبيين؟.

ولو أن الشيطان قد أمد القرآن حقا بدلائل على الوحي فقد نال ما يستحق وانقلب السحر على الساحر فأصبح مؤيدا للنبوة الخاتمة بحجج علمية باهرة وله أن يولول ما شاء، يقول العلي القدير: "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ" [التكوير: ٢٥-٢٩].

السؤال (٨٤٨٥٩): السلام عليكم ورحمة الله سمعنا يا شيخنا الفاضل أن في هذا اليوم السبت الموافق ١٤٢٦/٧/٢٢ وبعد الساعة ١٢ ليلاً سوف يقترب كوكب زحل من الأرض سوف يشاهد بالعين المجردة مثل القمر يوم ١٥المسئول هل هذا الحدث يتوافق مع خروج الكوكب ذو الذيل الذي ورد فيه حديث عن الرسول صلي الله عليه وسلم افيدونا جزاكم الله خير.

الجواب:

يعتقد أن مذنباً قد صدم منطقة يوكاتان yuctann شرق المكسيك منذ حوالي ٦٥ مليون سنة (K/T Impact)، وفي نفس الفترة هلكت أكثر الحيوانات خاصة الديناصورات ولذا ساد الاعتقاد أن سبب هلاكها سماوي يرجع لاصطدام كتلة مذنبية بالأرض مع امتداد دخان الصدام أفقياً في طبقات الجو العليا الأكثر تخلخلاً لتحجب ضوء الشمس فيقف التمثيل الضوئي في النبات وتهلك أغلب الأحياء، ولذا العجيب أن يفسر ابن عباس –رضي الله عنهما– آية الدخان بصدام مذنبي، قال ابن كثير (رحمهم الله جميعاً): "عن عبد الله بن أبي مليكة قال (غدوت على بن عباس ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، فقلت لم؟ قال: قالوا طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت)، وهكذا رواه بن أبي حاتم.. وهذا إسناد صحيح إلى بن عباس –رضي الله عنهما– جبر الأمة وترجمان القرآن وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين –رضي الله عنهم– أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن قال الله تبارك وتعالى: "فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين" الدخان١٠، أبي بين واضح يراه كل أحد... و(لكن) على ما فسر به بن مسعود –رضي الله عنه– إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: "يغشى الناس هذا عذاب أليم". الدخان١١، أي يتغشاهم ويعمهم ولو كان أمر خالياً

يخض أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) تفسير ابن كثير ج٤ص١٤٠، وقال ابن حجر: "ويؤيد كون آية الدخان لم تمض ما أخرجه مسلم من حديث أبي شريحة رفعه: "لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة.." الحديث (فتح الباري ج٨ص٥٧٣)، أما اقتراب زحل من الأرض فهو ظاهر تحدث دورياً ولا صلة لها بالمذنبات وكليهما سنن تشهد بتقدير الله سبحانه ومشيئته، والله تعالى أعلم.

السؤال (٨٥٥٨٦): السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سؤالي هو أنني قراءة كتاب أخذته من موقع الإعجاز العلمي في القران اسمه حياتي وتفسير الأحلام مؤلفه الشيخ نادر زين الدين هذا الكتاب لم أجده في المكتبات السعودية لا في الرياض ولا حتى في مكة أو الطائف وجده عنوان الكتاب على النت هو.

)

http://www.55a.net/firas/arabic/index.php?page=mohanad&id_pro=47&id=6&kind=3) أو من موقع الإعجاز العلمي قسم الكتب تجد هذا الكتاب سؤالي ما صحت المعلومات وهل يوثق في علم هذا الشيخ أفتوني جزاكم الله خير، علماً أن

الكتاب شيق وممتع ولكن أتحفظ على بعض الأبواب فيه خاصة عن الأولين والآخرين وما إلى ذلك.

الجواب:

بخصوص الكتاب الوارد ذكره في السؤال، فقد اطلعت عليه بناء على توجيهكم، وعنوانه الأول: (الرؤى والأحلام بقلم الشيخ نادر زين الدين)، وعنوانه الثاني: (المدخل إلى علم تأويل الرؤيا أو علم تفسير المنام تأليف المعبر نادر زين الدين)، ويفهم من هذا أن صفة (شيخ) في العنوان الأول لا تعني عالم متخصص في علوم الشريعة الإسلامية لأنها في العنوان الثاني استبدلت بصفة (معبر) يعني (معبر أحلام)، وأحيطكم علما بأن الموقع الذي نشره لا يمت بصلة لهيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ومضمون الكتاب ليس له علاقة بموضوع الإعجاز العلمي وإنما يتعرض لقضية تسلط الجن على الإنس وتسخيرهم وقضية الرؤى والأحلام وتأويلها من خلال أحداث مر بها الكاتب، ويستشهد بآيات يفسرها بطريقته الخاصة على خلاف أقوال المفسرين، وعبارته هي (صفحة ٨): "نجد معظم هؤلاء المفسرين اعتمدوا كل آية بمفردها فعزلوها عما قبلها وعما بعدها ولم يخطر لهم أن يتابعوا هذه الآية في هذه السورة بآية في سورة أخرى وهذا أفقدهم عمق الفهم الذي تقتضيه الحقائق كما أفقدهم شمولية النظرة"، ومع تقديم الكاتب نفسه على أنه معبر أحلام أي استوفى شروط المعبر ومنها الإلهام، وعبارته هي (ص ١٢): "ورابع هذه الصفات أن يكون المعبّر صاحب إلهام"،

وتتخلل قصته الشخصية التي يبين فيها أنه ضحية لتسلط الأعمال السحرية والجن طيلة عمله كمدرس لغة عربية عبارات لا يتوقع وجودها في عمل علمي مهذب؛ مثل (صفحة ٢٠): "الغواية بين يدي"، ويبين تحت هذا العنوان قصته مع امرأة تدعوه للرزيلة، ويقول (ص ٢٣): "قوبلت ولادة زوجتي.. بفرح غامر.. فقد بدأت النسوة يجتمعن على أصوات الزغاريد.. ويقمن الحفلات الراقصة"، وحكي عن رجل أدخله بيته واعتاد دخول الحمام كلما دخل بيته ثم قال (ص ٢٦): "وذات مرة شكت زوجتي من أنها فقدت قطعاً داخلية لها من الحمام"، ووصف الغريب بأنه (ص ٢٧): "ما كان ينقصه شيء من التدين سوى الصلاة"، واتهمه قائلا (ص٣١): "هو الذي قام بسرقة القطع الداخلية لزوجتي التي كانت عادة ما تضعها في الحمام"، ورغم هذا امتدت الصداقة (ص٣٣): "سبع سنوات"، ويجاهر باتهام الآخرين لإثبات قدرته على كشف الخفايا من خلال قراءة الأحلام كقوله (ص٣١)"قلت لزوجتي.. إنك تخلطين بين العمل الصالح وسواه فنهضت باكية شاكية أمرها إلى الله عز وجل معلنة بصوت عال توبتها مما هي عليه"، وقوله لابنة صديقه (ص٤٠): "إن والدك هو ابن زنا"، ويزعم أنه يرى الجن، وعبارته هي(ص٤٧): "ولأكثر من مرة كنت إذا وقفت ليلاً لإعداد القهوة أو الشاي تراءى لي من خلف الطاولة التي تقع ورائي جسم قصير أسود اللون ذو شعر أجعد ويرتدي دشداشة بترولية اللون"، وبعض العبارات دارجة شعبية لا يتوقع صدورها من مدرس لغة عربية كما يزعم مثل قوله (ص ٢٥): "لقد كانت زوجتي تتقن رصف حبات السيلان الذهبي والفضي ترصع به الآيات القرآنية.. فقام هذا الرجل..

بتخطيط لوحتين قرآنيتين.. فقامت زوجتي برصفهما ثم وضعت كل واحدة منهما في برواظ جميل"، أي (إطار جميل)، وقوله (ص٢٢٤): "تراه أحياناً كثير الجعجعة".

وفي الجملة هو كتاب مقزز هابط أصابني بالغثيان وبعض العبارات تخدش الحياء وصاحبه لا يمت بصلة لأهل العلم وأعف لساني عن وصفه وأعتذر عن الإجابة وأربأ بكم أن تنشروا السؤال، فالسائل نفسه محل شك عندي ولا تخدعني أشواقه للشيخ الدكتور سلمان العودة لأنه إذا كان قرأ الكتاب في الانترنت فلماذا اهتمامه بنشره وكيف أحصى مدن المملكة وتأكد من عدم توفره إن لم يكن هو الكاتب نفسه، ومع ذلك أرى تورعا أن ترسلوا للسائل العبارة التالية: "الموقع الذي نشر الكتاب ليس هو موقع هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة والتي يشرف عليها نخبة من أهل العلم، ومضمون الكتاب ليس له علاقة بموضوع الإعجاز العلمي، وإنما هو سرد لأحداث شخصية ولا يتناول موضوع الرؤى والأحلام أو موضوع الجن والشياطين من منظور شرعي"، وكفى، والله تعالى أعلم.

تفسير قوله تعالى: (يخرج من بين الصلب والترائب)

السؤال (٨٥٩٤٢): السؤال يقول الله تعالى في كتابه العزيز في سورة الطارق: "فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب". والصلب هو ظهر كل من الجنسين، والترائب هي

صفائح الصدر لكل من الجنسين، ونحن نعلم أن الحيوانات المنوية تتكون على مستوى الخصيتين، وأن البويضات تتكون على مستوى المبيض، فكيف ذلك؟

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأقول مستعينا بالله القادر، سائله تعالى التوفيق والسداد:

من مآثر علماء السلف -رحمهم الله جميعاً- في تناولهم للكتاب العزيز اعتبار دلالة السياق والقرائن وبلوغ قاعدة في التفسير تعالج دلالة النص، مع ما يشترك معه في نفس الموضوع وفق القول المشهور: "القرآن يفسر بعضه بعضا"، وفي قوله تعالى: "فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مّآءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ. إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ. فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ" [الطارق ٥-١٠].

(مّآءٍ دَافِقٍ) وصف للمني العديد المكونات بالماء العديد النطف أو القطرات مبينة تحركها ذاتيا بنشاط باسم الفاعل (دافق) قبل أن يعاين كثرتها وحركتها تحت المجهر إنسان، ويناسب تنكير لفظ (ماء) تعدد خصائص المني بتعدد الأفراد، وضمير الفعل (يخرج) يحتمل رجوعه لأحد المذكورين: إما (الماء الدافق) أو (الإنسان) بنوعيه من الذكر والأنثى، ولا عبرة بأقرب المذكورين إذا دلت قرائن السياق على رجوعه للأبعد وهو (الإنسان)، خاصة أنه موضوع الحديث وفق التعبير (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)، وكافة الضمائر سواه تصلح أن تعود

على (الإنسان)، ولا تصلح أن تعود على (الماء) بقرينة التعبير (يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ)، وهو باتفاق يوم القيامة؛ لأن المني لا يصح وصفه بإمكان إعادته حيا ليحاسب في التعبير (إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) وإنما يصلح الوصف للإنسان، ولا يصح أن يوصف بأنه فاقد القوة الذاتية ونصرة الأهل والعشيرة أو الصحبة والأنصار في التعبير (فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ) وإنما يصلح للإنسان، ولا خلاف في عودة ضمير (مِمّ خُلِقَ) وضمير (خُلِقَ) على (الإنسان)، والأصل عند المحققين عدم تشتيت مرجع الضمائر.

والتعبير (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ) يدعو لتأمل أصل الإنسان، فيرجع به نحو الماضي الأقرب ومنه إلى الأصل الأبعد، وأصله الأقرب من الجين الأسبق يبينه التعبير (خُلِقَ مِن مّآءٍ دَافِقٍ)، والأصل الأبعد عند تكون أعضاء أجنة الجين الأسبق بناء على المعرفة الطبية تكوين بدايات الخصية والمبيض كعضوي إنجاب الذرية في الظهر، وخروجها في الجنسين من بين عظام الظهر أو الصلب وعظام الصدر أو الترائب لينزل المبيض للحوض والخصية لكيس الصفن قبل الولادة، فيصلح أن يكون التعبير (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ) وصفا لموضع خروج الإنسان من ظهور الآباء باعتبار أصله، خاصة أن فعل الخروج ورد كثيراً في القرآن للإنسان بيانا لخروجه من بطون الأمهات ويوم البعث للحساب، بينما لم يرد قط للمني، وحينئذ يستقيم المعنى، ويزول الإشكال، وتتطابق دلالة النص الشريف مع أدق وأثبت معطيات العلم الحديث، والله تعالى أعلم.

هل مكة معصومة من الزلازل؟!

السؤال (٨٦٦٧٧): السلام عليكم.

هل يوجد سبب علمي لما حدث في مكة المكرمة من هزَّة أرضية في شهر شعبان من عام ١٤٢٦هـ، وهل هي زلزال؟ وهل مكة معصومة من الزلازل؟

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

أولا: تعريف الزلازل وبيان مخاطرها:

الزلازل (Earthquakes) عبارة عن اهتزازات تحدث في قشرة الأرض بسبب انكسار وزحزحة مفاجئة لقطاعات عريضة من ألواح القشرة الصخرية الصلبة للأرض، لأنها في الحقيقة غير متصلة وإنما هي قطع متجاورات، وهو من أعظم الأحداث ذات القوة الهائلة التي تُصيب العمران ولها نتائج مرعبة، وقد يطلق زلزال عنيف كميات من الطاقة تعادل مائة ألف مرة قدر ما أطلقته القنبلة الذرية التي أطلقتها الحكومة الأمريكية فحصدت سكان مدينة هيروشيما، ولم تميز بين أطفال وعجائز رجالاً ونساء، وقد تؤدي حركات الصخور أثناء الزلزال إلى تغيير مجاري الأنهار، كما يمكن أن يؤدي الزلزال إلى حدوث انزلاقات تؤدي بدورها إلى خراب كبير وفقدان أرواح.

وتسبِّب الزلازل الكبيرة التي تقع تحت مياه المحيط نشوء سلاسل من أمواج بحرية عظيمة مدمرة تغرق السواحل، ولا تقتل الزلازل الناس غالبًا مباشرة، بل

إن كثيرًا من الوفيات والإصابات أثناء الزلازل تنتج عن سقوط الأجسام وعن انهيارات المباني، ويعتبر اشتعال النيران من جراء تحطم خطوط الغاز والكهرباء خطرًا رئيسًا آخر.

وتتوقف قوة الزلازل على مقدار تكسر الصخور ومقدار زحزحتها، وبمقدور الزلازل القوية هز الأرض الصلبة بعنف إلى مسافات شاسعة، بينما اهتزاز الأرض نتيجة زلزال صغير قد لا يتعدى الاهتزاز الذي يسببه مرور شاحنة كبيرة، ويقع في العموم زلزال قوي مرة واحدة كل سنتين بالتقريب، ويقع على الأقل كل عام حوالي أربعين زلزالاً متوسط القوة يحدث دمارًا في أماكن مختلفة من العالم، كما يقع كل عام نحو من أربعين إلى خمسين ألف زلزال صغير يمكن الإحساس بحدوثها دون أن تؤدي إلى دمار واسع.

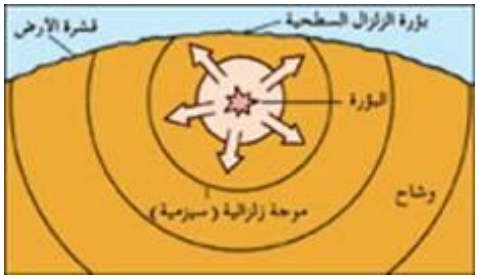

وتحدث الزلازل عندما تنكسر الصخور وتتزحزح مطلقة كمية كبيرة من الطاقة في شكل ذبذبات تسمى الموجات السيزمية، وتسمى النقطة داخل الأرض التي تنكسر فيها الصخور أولاً البؤرة، وتسمى النقطة المقابلة من سطح الأرض التي تقع مباشرة فوق بؤرة الزلزال السطحية، وتقع معظم الزلازل على طول امتداد الصدوع، والصدع كسْر يحدث في صخور قشرة الأرض الخارجية، يحدث حينما تنزلق قطاعات صخرية الواحدة عبر الأخرى بصورة متكررة. وتكون

الصدوع في مناطق ضعف صخور الأرض، ومعظمها تحت سطح الأرض، ولكن بعضها كصدع (سان أندرياس) في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية يشاهد فوق سطح الأرض، ويؤدي الإجهاد المطبق على الأرض إلى التواء الكتل الصخرية على طول امتداد الصدع، وعندما يبلغ التواء الصخر حده الأقصى فإن الصخر يتكسر وينهار متجزئًا إلى وضع جديد، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى اهتزاز زلزالي، وتبدأ الزلازل عادة عميقة تحت سطح الأرض، وتقع بؤرة معظم الزلازل على عمق أقل من (٧٠ كم) تحت سطح الأرض، ويحس الناس عادة بالاهتزاز الأكبر للأرض بالقرب من بؤرة الزلزال السطحية، ويؤدي اهتزاز الأرض إلى ترنح الأبنية من جانب لآخر، كما يؤدي إلى ارتفاعها وانخفاضها فجأة وإلى تحركها بعنف، وقد تنزلق من فوق قواعدها وتنهار أو ترجف وتتشقق.

ثانيا: قياس الزلازل:

قد يكون مقياس (ريختر) من أحسن ما يستعمل لقياس شدة الزلازل، وقد طوّره (تشارلز ريختر) عام ١٩٣٥م ويقيس مقياس ريختر حركة الأرض التي يسببها الزلزال، وتعني كل زيادة بمقدار رقم واحد (تدريج واحد) على مقياس القدر الزلزالي هذا أن الطاقة التي يطلقها زلزال تبلغ (٣٢) ضعفًا، مثال ذلك أن زلزالاً ذا قدر زلزالي مقداره سبع درجات -يطلق (٣٢) ضعفًا من الطاقة التي يطلقها زلزالٌ ذو قَدْر زلزالي مقداره ست درجات، وزلزال مقداره أقل من ٢ يعتبر زلزالا خفيفًا إلى درجة أن الإحساس به لا يحصل إلا على مؤشرات الزلازل فقط، كما أن زلزالاً ذا قَدْر زلزالي بلغ سبع درجات يمكن أن يدمر

عددًا كبيرًا من المباني، ويزداد قدر الزلازل بعشرة أضعاف عند كل نقصان رقم واحد (تدريج واحد) في مقياس ريختر للقدر الزلزالي. فمثلاً عدد الزلازل ذات القدر الزلزالي ست تعادل عشرة أضعاف عدد الزلازل ذات القدر الزلزالي ٧.

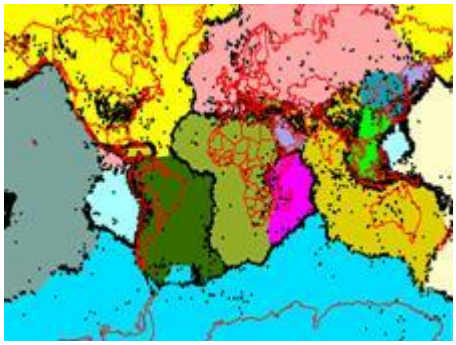

ثالثا: تباين شدة الزلازل تبعا للمكان:

يفسر التصور المؤيد بالشواهد باسم حركة الصفائح القارية (Tectonic Plate) سبب وقوع الزلازل، وحسب هذا التصور فإن قشرة الأرض الخارجية تتألف من حوالي عشر صفائح كبيرة صلبة، وحوالي عشرين أصغر حجمًا، وتتألف كل صفيحة من قطاع من قشرة الأرض وجزء من وشاح الأرض، والأخير هو طبقة سميكة من صهير صخري حار يقع تحت قشرة الأرض، ويطلق العلماء على هذه الطبقة من قشرة الأرض مع الجزء العلوي من الوشاح اسم الغلاف الصخري، وتتحرك الصفائح حركة دائبة بطيئة فوق نطاق الانسياب، وهو طبقة من الصهير الصخري توجد في الوشاح، ولدى تحرك الصفائح فإنها قد تتصادم مع بعضها بعضًا، أو أنها قد تتباعد بعضها عن بعض، أو أنها قد تنزلق إحداها فوق الأخرى. وتؤدي حركة الصفائح إلى إجهاد الصخور على حدود التقاء الصفائح بعضها ببعض، وتشكيل نطاق

صدوع حول حدود الصفائح هذه، قد تحْشر الصخور في مكان ما على طول امتداد بعض الصدوع، بحيث لا تستطيع الانزلاق عند تحرك الصفائح، وهكذا يتولد جهد في الصخور الواقعة على جانبي الصدع يؤدي إلى زحزحتها فجأة فتسبب الزلزال، وتقع معظم الزلازل في نطق الصدوع على حدود الصفائح على طول ما يسمى بخط النار لانتشار البراكين، وتعرف مثل هذه الزلازل بالزلازل بين الصفائح، كما تقع بعضها في داخل جسم الصفيحة ذاتها، وتسمى في هذه الحال الزلازل داخل الصفيحة، وأحد أعظم الصدوع شهرة هو صدع (سان أندرياس) حيث تتكرر الانزلاقات لتحرك صفيحة المحيط الهادئ فوق صفيحة أمريكا الشمالية، ويجعل صدع (سان أندرياس) والصدوع المصاحبة له غرب الولايات المتحدة الأمريكية منطقة كوارث متكررة. (الموسوعة العربية العالمية).

رابعا: اكتشاف خصوصية جيولوجية لمكة المكرمة:

مكة المكرمة أشهر مدن العالم الإسلامي، تهفو إليها قلوب المسلمين جميعًا من شتى بقاع الأرض وبها المقدسات الإسلامية: المسجد الحرام والكعبة المشرفة ومنى ومزدلفة وعرفات، خصها الله بالتكريم عبر مختلف العصور، وأقسم بها في كتابه في قوله تعالى: "لا أقسمُ بهذا البلد وأنت حِل بهذا البلد ووالدٍ وما ولد" [البلد ١-٣]، وهي مسقط رأس الرسول مُحَمَّد -ﷺ- ومبعثه، بها نزل الوحي الأمين، ومنها انتشر نور الحق يبدد دياجير الكفر في كل مكان، ويقصدها ملايين الحجاج كل عام لأداء فريضة الحج، فضلاً عن الزوار والمعتمرين من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وفي أرض مكة وبطاحها كان جهاد المسلمين

الأوائل في مواجهة الشرك والضلال وعبادة الأصنام، وعلى أرضها كان تحقيق وعد الله لرسوله وللمؤمنين يوم دخلوها في العام الثامن للهجرة ظافرين منتصرين. وقد ارتبط ظهور مكة تاريخيًا بوظيفتها الدينية، وازداد نفوذها تدريجيًا؛ فأصبحت مركزًا للمعمورة المحيطة بها ومحطة تجارية بين الشمال والجنوب، وأشار المؤرخ اليوناني (بطليموس) إليها في القرن الثاني الميلادي باسم (ماركوابا) أي بيت الرب، وهي إشارة لها دلالتها، خاصة عندما نعلم أن الكتب المعتبرة عند الكنيسة قد ذكرتها تحت اسم بكة (Baca) بصفتها بيت الله في وادي جاف موضع الحجيج، حيث البئر ليشربوا والجبل ليتعبدوا، وهو ما يوافق علاماتها حتى اليوم، وهو نفس الاسم المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: "إِنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلّذِي بِبَكّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لّلْعَالَمِينَ" [آل عمران:٩٦]. ويحيط بمكة من جهات ثلاث جبال ذات شعاب أغنت على مر العصور عن بناء سور لحمايتها، ويحتضن مكة وادي إبراهيم الذي ينحصر بين سلسلتي جبال متقاربة من مختلف الجهات، فالسلسلة الشمالية تتألف من جبل الفلق وجبل قعيقعان، والسلسلة الجنوبية تتألف من جبل أبي جديدة غربًا وجبل كُدي جنوبًا، ثم جبل أبي قبيس في الجنوب الشرقي، ثم جبل خندمة.

وترتفع مكة المكرمة عن سطح البحر بأكثر من ٣٠٠م، وتقع عند ملتقى دائرة عرض (٢ ً ٢٢)° شمالاً مع خط طول (٨ ً ٣٩)° وملتقى (١َ٢ ٢٨)° عرضًا مع (٣َ٧ ٥٤)° من الطول الشرقي، ويعد موقعها هذا من أكثر التكوينات الجيولوجية حصانة؛ نتيجة لوجودها بسلسلة جبلية، وفضلا عن

وسطية مكة للمعمورة فإنها تقع وسط جزيرة العرب، ولا يقطعها خط النار، حيث تكون الزلازل أعنف شدة وأكثر عددًا، وإنما يمر بعيدا عنها.

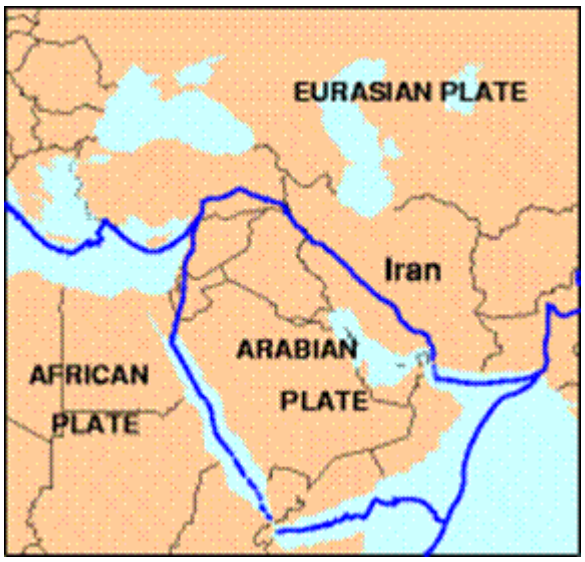

خامسا: مكة المكرمة محمية، لكنها غير معصومة:

نادرًا جدًّا ما تقع زلازل يذكرها التاريخ لمكة المكرمة؛ نتيجة لموقعها الفريد ضمن سلسلة جبال غرب جزيرة العرب وسط لوح شبه الجزيرة بعيدا عن خط النار الذي يقطع إيران شرقا، والبحر الأحمر غربا، وجبال زاغروس شمالا، وبحر العرب جنوبا، والمعلوم أن الزلازل داخل الصفائح ليست شائعة ولا كبيرة كتلك الزلازل التي تقع على طول حدود الصفائح، وأكبر هذه الزلازل يكون أصغر مائة مرة من الزلازل بين الصفائح الكبيرة، وتميل الزلازل داخل الصفيحة إلى الوقوع في المناطق الضعيفة الهشة داخل الصفيحة، ويعتقد العلماء أن الزلازل داخل الصفيحة تنتج عن إجهاد يطبق على الصفيحة من جراء تغيرات الحرارة والضغط داخل الصخور التحتية، كما قد يكون مصدر الإجهاد موجودًا على

حدود صفيحة قارية بعيدة، ونتيجة لخصوصية مكة المكرمة –جيولوجيًّا– لا يكاد التاريخ المكتوب أن يسجل وقوع زلازل ذات آثار مدمرة في منطقتها، وليس في الكتاب والسنة دليل على أن مكة على خصوصيتها وعظيم قدرها معصومة من الزلازل أو غيرها من الكوارث.

وأما ما حدث مساء الأحد وصبيحة الاثنين (٧و٨ شعبان ١٤٢٦هـ) فقد شعر الأهالي بهزات مكتومة، ولكن مركز الدراسات الزلزالية لم يسجل هزات بالمنطقة، بينما أعلنت هيئة المساحة الجيولوجية وقوع هزة قريبة بقوة(٣,٧) بمقياس ريختر الساعة الثانية صباح الاثنين (الصحف السعودية صبيحة الواقعة) فإما أن يكون أثر الزلزال القريب، أو تفجير اصطناعي نتيجة أعمال التعمير، والله تعالى أعلم.

الإعجاز العلمي في قوله "إذا بلغ مغرب الشمس..."

السؤال (٩٦٦١٧): يؤرقني تفسير الآية (٨٦) من سورة الكهف: "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة...." رجاء التفسير في ضوء الحقائق العلمية المسلَّم بها حالياً.

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فجوابا على السؤال حول معنى قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ" [الكهف:٨٦]، ومدى مطابقته للواقع؛ أقول مستعينا بالله –تعالى– سائله العون والتوفيق:

(١) في أعماق البحار شقوق تدفع بحمم حامية ملتهبة:

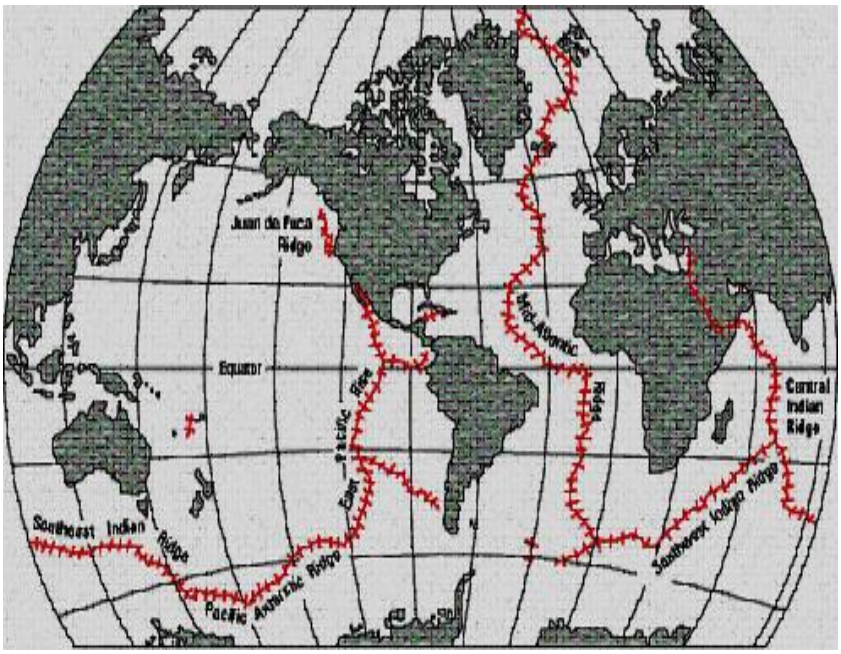

اكتشف علماء الجيولوجيا حديثا أن القشرة الأرضية مقسمة بشبكة من الصدوع العميقة إلى قطع متجاورات يسمى كل منها لوحًا (Plate) بالإضافة إلى عدة ألواح صغيرة تسمى لويحات (Platelets)، وتطفو هذه الألواح على طبقة شبه منصهرة، وتصعد الصهارة (Magma) من بينها في قيعان المحيطات، لتضيف مادة جديدة إلى كل لوحين متجاورين، وبالزيادة من طرف تنقص الألواح من الطرف الآخر دوما بالانثناء تحت طرف الألواح المجاورة، وهكذا تبين تميز وجود صدوع عميقة في منتصف المحيطات (Mid-

Oceanic Rifts) تمتد لتغطي القشرة الأرضية بأكملها، وقد يصل عمقها إلى حوالي (١٥٠كم) بعمق القشرة ذاتها في أسمك منطقة، وتبين كذلك أن جميع القارات المعلومة اليوم وما يميزها من جبال تتحرك بحركة الألواح التي تحملها متقاربة أو متباعدة عن بعضها البعض حركة بطيئة، لتحقق مسافة لا تتجاوز عدداً قليلاً من السنتيمترات كل سنة، ولكنها حركة مستمرة، فمثلاً يتسع شق البحر الأحمر بنسبة (٣ سم) في السنة، وشق خليج كاليفورنيا بنسبة (٦سم) في السنة، ويعتقد حاليا بأن القارات الشابة كانت متكتلة مع بعضها البعض منذ حوالي (٢٠٠) مليون سنة، لتكون قارة وحيدة ضخمة وسط محيط واحد، ومع انقسامها سمي الصدع الأصلي

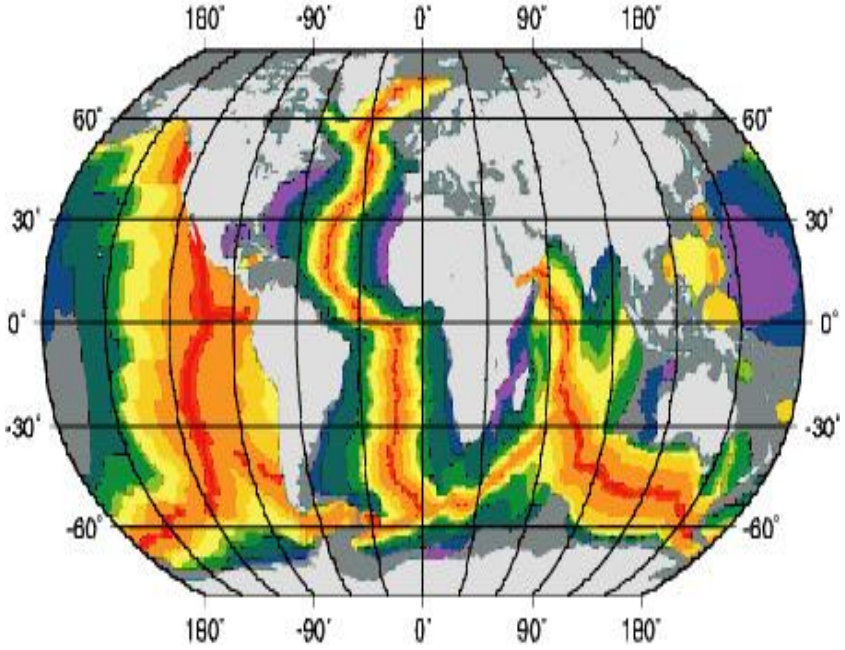

بصدع المنتصف الأطلنطي (Mid-Atlantic Ridge) ومازال إلى اليوم يمثل منطقة نشطة بركانياً، وفي مناطق الوديان العميقة في منتصف المحيطات

(Mid-Ocean Rifts) حيث تلتقي الألواح القارية تتوقد الأعماق بنيران لا يقدر ماء المحيطات كله على إطفائها، وتبلغ درجة الحرارة في تلك المناطق البركانية النشطة الألف درجة مئوية، وفي قوله تعالى: "وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ.إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ" [الطور:٦و٧] ترجع عظمة القسم على المقسوم به كدليل على الوحي، ولفظ (البحر) اسم جنس يعني البحار العظيمة في سياق نظرة شمولية للعالم حاليا تنذر بخرابه مستقبلا في جواب القسم "إِنّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ"، ووصف البحر بلفظ (المسجور) يعني أن قاعه ملتهب يتقد بالنيران، كما في قوله تعالى: "ثُمّ فِي النّارِ يُسْجَرُونَ" [غافر:٧٢] أي توقد تحتهم، لأن (السجر) هو الإيقاد في التنور.

وأما قوله تعالى: "وَإِذَا الْبِحَارُ سُجّرَتْ" [التكوير: ٦] فيعني أن نيران القاع محجوزة وينذر باندفاعها لتصبح منظورة لاحقاً بياناً لدمار العالم مستقبلاً، ولم تعرف صدوع منتصف المحيط (Mid-OceanRifts) إلا بعد الحرب العالمية الثانية خلال نظرية الألواح التكتونية (Tectonic Plates) التي صيغت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي فقط.

ومن الناحية العلمية تمثل تلك الصدوع الملتهبة المتصلة والممتدة عميقا أبرز معلم لقشرة الأرض، ولذا في قوله تعالى: "وَالأَرْضِ ذَاتِ الصّدْعِ" [الطارق:١٢] وقوله تعالى: "وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ" يعتبر سبق القرآن بالإشارة إلى هذه الحقائق المخبوءة عميقا تحت سطح المحيطات دليلاً جازماً على أنه كلام الله العليم الحكيم.

(٢) مشهد غروب الشمس في البحر مبني على رأي العين:

الواقع أن جرم الشمس أكبر كتلة وحجما من كواكبها وأقمارها مجتمعة، حيث يحوي وحده ما يقدر فلكيا بنسبة (٩٩,٨٦%) من كتلة النظام الشمسي، وتبلغ كتلتها (١,٩٩) × (١٠ أس ٣٠) كجم [وللاختصار يصطلح رياضيا بالأس لتضاعيف الأعداد، والقيمة (١٠ أس ٣) تعني ١ أمامه ٣ أصفار (١٠٠٠) وكذلك القيمة (١٠ أس ٣٠) تعني ١ أمامه ٣٠ صفراً]،

أي (٣٣٣,١٣٢٥) ألف مرة قدر كتلة الأرض التي تبلغ (٥,٩٧٣٦) × (١٠ أس ٢٤) كجم، ويبلغ متوسط نصف قطر الشمس حوالي (٦٩٦) ألف كم، بينما يبلغ نصف قطر الأرض (٦٣٧١,٣) كم، ونظراً لضخامة الشمس يمكن أن تستوعب حوالي (١,٣) مرة قدر حجم كوكب الأرض، ومع أن قرص الشمس يبدو كالقمر حجما قطع القرآن بأنه حقيقة أكبر على لسان نبي الله إبراهيم (عليه السلام) محاججا قومه في قوله تعالى: "فَلَمآ رَأَى الشّمْسَ بَازِغَةً

قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" [الأنعام:٧٨]، ولا يتوهم إذن أن القرآن يقرر أن جرم الشمس صغير حتى تهبط حقيقة في بحر من بحار الأرض؛ لأن التعبير (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) قائم على النسبة لسكان الأرض كما ترى العين، نحو قوله تعالى: "قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنّ اللهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ" [البقرة:٢٥٨]، وعلى هذا اتفق الجمع الغفير من المفسرين سلفا وخلفا؛ قال ابن الجوزي: "ربما توهم متوهم أن هذه الشمس على عظم قدرها تغوص بذاتها في عين ماء وليس كذلك.. وإنما وجدها تغرب.. كما يرى راكب البحر الذي لا يرى طرفه أن الشمس تغيب في الماء، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان" [زاد المسير لعبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧ هـ)، المكتب الإسلامي بيروت (١٤٠٤ ط٣)، (ج٥ص١٨٦)].

وقال البيضاوي: "بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن.. (أمام) بصره غير الماء، ولذلك قال (وجدها تغرب)، ولم يقل (كانت تغرب)" [أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي المتوفى (سنة ٧٩١ هـ)، دار الفكر بيروت (١٤١٦)، (ج٣ص٥٢٠)].

وقال الرازي: "الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض.. (و)أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلد، ووقت الظهر في بلد آخر، ووقت الضحى في بلد ثالث، ووقت طلوع الشمس في بلد رابع، ونصف الليل في بلد خامس، وإذا كانت هذه الأحوال

معلومة بعد الاستقراء والاعتبار، وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات كان الذي يقال أنها تغيب (حقيقة) في الطين والحمئة كلاما على خلاف اليقين، وكلام الله –تعالى– مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل"[التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لابن خطيب الري فخر الدين مُحَمَّد بن عمر الرازي المتوفى (سنة ٦٠٦ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت (١٤٢١)، (ج٢١ص١٤٢)].

وقال البغوي: "معنى قوله: (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ).. في رأي العين" [معالم التنزيل للحسن بن سعيد الفراء البغوي المتوفى (سنة ٥١٦ هـ)، دار المعرفة بيروت (١٤٠٧ ط)، (ج٣ص١٧٩)].

وقال أبو حيان: "أي فيما ترى العين" البحر المحيط لأبي حيان في تفسير الآية.

وقال القرطبي: "ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسها؛ لأنها مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض، ولهذا قال : "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا" [الكهف:٩٠]، ولم يُرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم" [الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى (سنة ٦٧١ هـ)، دار الشعب القاهرة (١٣٧٢ط٢)، (ج١١ص٤٩)].

وقال السعدي: " أعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها تغرب في عين حمئة أي سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع" [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى (سنة ١٣٧٦ هـ)، مؤسسة الرسالة (بيروت ١٤٢١)، (ص٤٨٥)].

وقال الألوسي: "(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ) أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته، ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس.. (و)جرم الشمس أكبر من جسم الأرض بأضعاف مضاعفة، فكيف يمكن دخولها في عين ماء في الأرض؟ وهو مدفوع بأن المراد: وجدها في نظر العين كذلك إذ لم ير هناك إلا الماء، لا أنها كذلك حقيقة، وهذا كما أن راكب البحر يراها إذا لم ير الشط كأنها تطلع من البحر وتغيب فيه إذا لم ير هناك إلا الماء لا أنها كذلك حقيقة، والذي في أرض ملساء واسعة يراها أيضا كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها.. فالشمس على ما هو الحق لم تزل سائرة طالعة على قوم غاربة على آخرين بحسب آفاقهم.. ويدل على ما ذكر ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من شرقها وكذلك القمر" [روح المعاني لشهاب الدين الألوسي المتوفى (سنة ١٢٧٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت (ج١٦ص٣١)].

وأوجز سيد قطب فهم المفسرين -رحمهم الله تعالى أجمعين- بقوله: "ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق، وهو يختلف بالنسبة للمواضع، فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل، وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار، وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر، والظاهر من النص أن ذا القرنين غَرَّبَ حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده، فرأى الشمس تغرب فيه" [في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى (سنة ١٣٨٦ هـ)، طبعة دار الشروق].

(٣) شقوق أعماق المحيطات تدفع بصهارة حارة تسود بالتبرد:

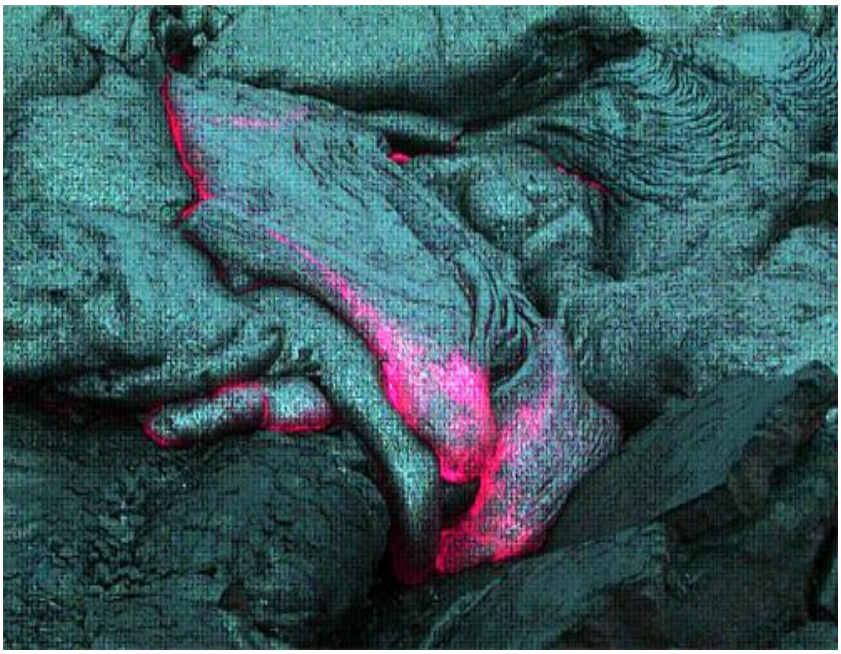

قال الألوسي: "وجدها أي الشمس (تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأة وهي الطين الأسود.. وقرأ عبد الله وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن العاص وابنه عبد الله وابن عمر ومعاوية والحسن وزيد بن علي وابن عامر وحمزة والكسائي (حامية).. أي حارة" [روح المعاني للألوسي (ج١٦ص٣١)].

وقال الصنعاني: "عن الحسن في قوله تعالى (حمئة) قال حارة" [تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى (سنة ٢١١ هـ)، مكتبة الرشد الرياض (١٤١٠)، (ج٢ص٤١٠)].

وقال ابن عاشور: "(حامية).. أي حارة، من الحمو وهو الحرارة" [التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور المتوفى (سنة ١٣٩٣) هـ، الدار التونسية (١٩٨٤م)، صفحة: (٢٥٧٣)].

وقال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان.. ولكل واحدة منهما وجه صحيح" [تفسير مُحَمَّد بن جرير الطبري المتوفى (سنة ٣١٠ هـ)، دار الفكر بيروت (١٤٠٥)، (ج١٦ص١١)].

وقال الرازي: "فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا" [التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي (ج٢١ص١٤٢)].

وبمثلهما قال النحاس [معاني القرآن لأبي جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس المتوفى (سنة ٣٣٨ هـ)، جامعة أم القرى مكة المكرمة (١٤٠٩)، (ج٤ص٢٨٨)].

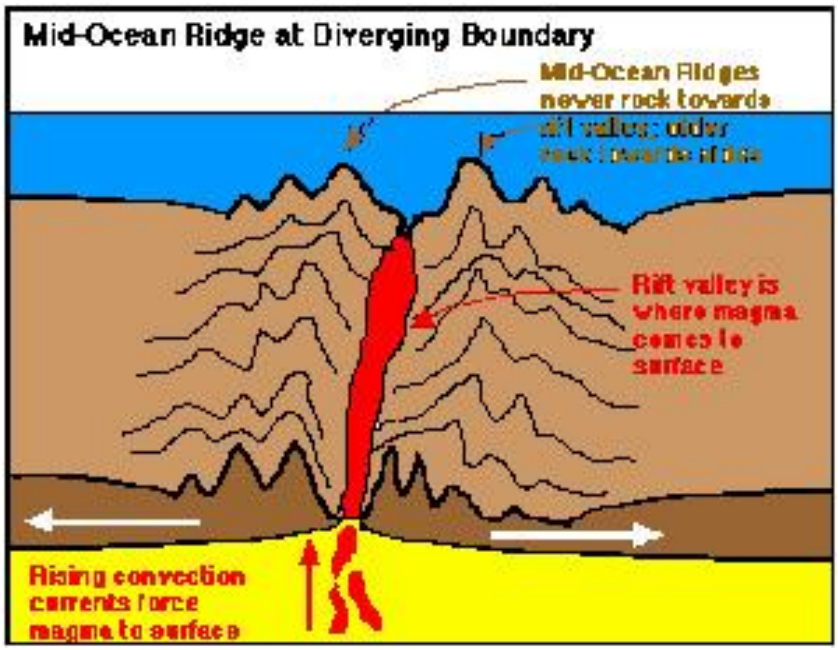

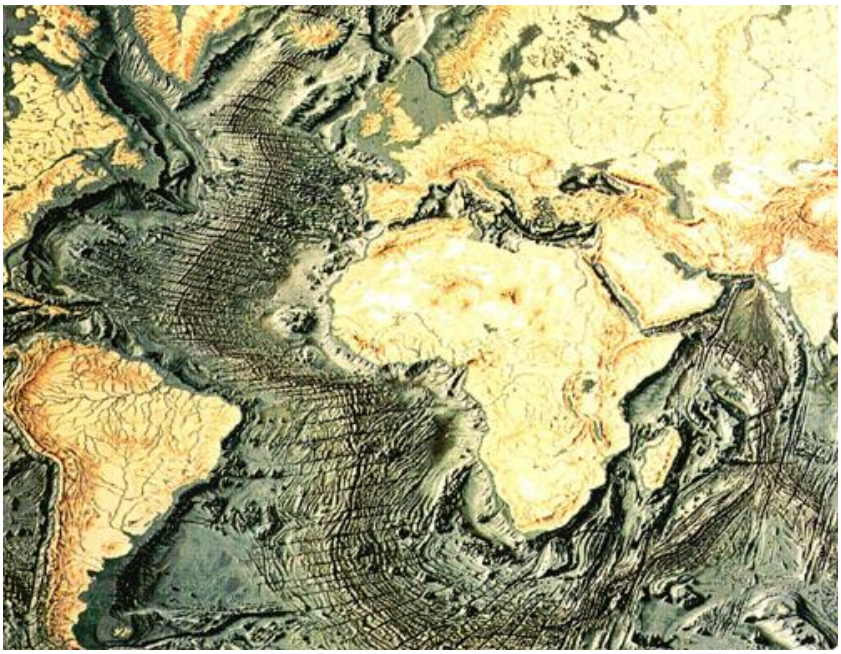

(٤) الشقوق الملتهبة في قيعان المحيطات هي أبرز معالمها:

قال الشنقيطي: "قال ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره: أي رأى الشمس تغرب في البحر المحيط.. ومقتضى كلامه أن المراد بالعين في الآية البحر المحيط.. والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء.. فاسم العين يصدق على البحر لغة.. وكون من على شاطئ المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر أمر معروف، وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية، والعلم عند الله تعالى" [أضواء البيان لمحمد الأمين بن مُحَمَّد بن المختار الجكني الشنقيطي المتوفى (سنة ١٣٩٣)، دار الفكر بيروت (١٤١٥ هـ)، (ج٣ص٣٤١)].

وقال القرطبي: "قال القتبي: ويجوز أن تكون هذه العين من البحر" [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج١١ص٤٩)].

وبمثله قال أبو حيان والنحاس، ومقتضى كلامهم أن تلك العيون من لوازم المحيطات وأنها متصلة، وفي كل محيط عين حامية حمئة مما يتفق مع وجود فوهات تدفع بحمم الصخور النارية الداكنة خاصة في المحيط الغربي أو الأطلسي، وعلى هذا الوجه يكون في التعبير إيجاز حذف اكتفاء بشهرة معلوم، وهو مشهد غروب الشمس بالمحيط، وعبر عن المحيط بلازمه الذي لم تشاهده عين وهو شقوق قاعه، ولا يأبى السياق التقدير (وجدها تغرب في مرأى العين في محيط ذي عين حمئة)؛ أي يطفح قاعه بمواد صخرية نارية سوداء من عيون متصلة بطول المحيط، واحتمل الألوسي كلا الوجهين بقوله: "المراد بالعين الحمئة إما عين في البحر أو البحر نفسه، وتسميته عينا مما لا بأس به" [روح المعاني للألوسي (ج١٦ص٣٢)].

والمعنى أن البحر المحيط نفسه أو شق في قاعه يدفع على الدوام بمواد ملتهبة قاتمة وهو ما يتفق مع الواقع بالفعل، وخص القرآن للمحيط الغربي أو الأطلسي بالبيان يتفق مع كونه المحيط المتميز بالصدع الأصلي والأعظم عندما كانت القارات كلها متصلة في قارة واحدة، وعلى هذا الوجه يتضمن النص الكريم إخباراً بغيب لا يعلمه بشر زمن الوحي يصف خفايا أعمق مما شاهده ذا القرنين، وما يشاهده جميع الناس على سواحل المحيطات عند الغروب، والله تعالى أعلم.

اكتشافات العصر واختصاص الله بعلم ما في الأرحام!

السؤال (٩٧٥١١): أود أن أستفسر عن بعض الأمور التي أفكر فيها كثيراً، ولا أجد لها جواباً، ومنها سؤالان هما:

١- قال تعالى: "ويجعل من يشاء عقيماً" فقد فكرتُ في هذه الآية، وخطر على بالي موضوع العمليات التي تجرى اليوم وثبت نجاحها، وهي ما يسمى بـ(عمليات أطفال الأنابيب)، فهل من كان عقيماً يستطيع إجراء هذه العملية المذكورة آنفاً، وبالتالي يكون له أطفال، مع أن هذا الأمر (العقم) قدَّره الله عليه؟

٢- قال تعالى: "ويعلم ما في الأرحام". عندما نظرت في هذه الآية تذكرت أن العلم الحديث استطاع معرفة ما في رحم الأم هل هو ذكر أم أنثى، فطالما أن الآية أفادت أن علم ما في الأرحام يختص به الله وحده سبحانه،

فكيف يعلم الأطباء –اليوم– ما في رحم المرأة هل هو ذكر أم أنثى؟ أرجو أن ترشدوني.

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

فأقول مستعينا بالعلي القدير –سبحانه– القادر وحده على كل شيء:

في قوله تعالى: "لِلّهِ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذّكُورَ أَوْ يُزَوّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" [الشورى:٤٩-٥٠]؛ بيان بنفاذ مشيئة الله في كل شيء وطلاقة قدرته تعالى، والعقم اصطلاحا: حالة لا أمل في علاجها كما في حال الفشل الدائم للخصيتين أو المبيضين، أما إذا عولجت الحالة فلا تسمى حينئذ عقما أصلا، وإنما ضعفا في الخصوبة لأسباب يمكن بوسيلة أو أخرى علاجها، فإن شفيت حالة فهي ضعف في الخصوبة، وأما العقم فلا علاج له.

ومن أصول الإيمان اليقين بأنه لا يقع شيء إلا بقدر الله وفق ما يشاء تعالى، فإن تقدم الطب وتمكن من معرفة بعض الأسباب المانعة للحمل وتمكن من علاجها فهو بقدر الله تعالى، وإن لم يتمكن الطب من علاج بعض حالات غير ممكنة العلاج أو مجهولة الأسباب فهو بقدر الله تعالى، وليس لأحد أن يدعي العلم بقدر الله تعالى.

وتتكون جميع بويضات المرأة عندما تكون جنينا ثم تنضج بويضة كل شهرين من كل مبيض بالتتابع عند البلوغ، ويستمر نضوج بويضة شهريًّا خلال فترة

خصوبة المرأة حتى تستنفذ رصيدها من البويضات عند بلوغ سن اليأس، ولذا ينقطع الأمل في الإنجاب بكِبر الزوجة، بينما لا ينقطع بكِبر الزوج.

والعجيب أن يفرّق الذكر الحكيم بين عدم إنجاب المرأة مع الأمل بسبب كِبر الزوج بلفظ "عاقر"، وبين انقطاع الأمل بسبب كِبرها هي بلفظ "عقيم"؛ فلم يَحِد عن وصف حال زوجة زكريا -عليهما السلام- عند كِبره بلفظ "عاقر"، يقول تعالى: "ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّآ إِذْ نَادَىَ رَبّهُ نِدَآءً خَفِيّاً قَالَ رَبّ إِنّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّي وَاشْتَعَلَ الرّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبّ شَقِيّاً وَإِنّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبّ رَضِيّاً يَزَكَرِيّآ إِنّا نُبَشّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَىَ لَمْ نَجْعَل لّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً قَالَ رَبّ أَنّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبّكَ هُوَ عَلَيّ هَيّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً" [مريم:٢-٩]، ويقول تعالى: "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيّا رَبّهُ قَالَ رَبّ هَبْ لِي مِن لّدُنْكَ ذُرّيّةً طَيّبَةً إِنّكَ سَمِيعُ الدّعَآءِ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّي فِي الْمِحْرَابِ أَنّ اللهَ يُبَشّرُكَ بِيَحْيَىَ مُصَدّقاً بِكَلِمَةٍ مّنَ اللهِ وَسَيّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مّنَ الصّالِحِينَ قَالَ رَبّ أَنّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ" [آل عمران:٣٨-٤٠]، ومع اليأس من الحمل وانقطاع الأمل لكِبر الزوجة عدل في وصف حال زوجة إبراهيم -عليهما السلام- إلى التعبير بلفظ "عقيم"، يقول تعالى: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَىَ أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ وَبَشّرُوهُ

بِغُلاَمٍ عَلَيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرّةٍ فَصَكّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبّكِ إِنّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ" [الذاريات:٢٤-٣٠]، فالفارق أن زوجة إبراهيم "عجوز" بينما لم يمثل كِبر الزوجين فارقا، يقول تعالى: "وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىَ قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنّآ أُرْسِلْنَا إِلَىَ قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنّ هَـَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوَاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنّهُ حَمِيدٌ مّجِيدٌ" [هود:٦٩-٧٣].

والتمييز بين اللفظين على لساني زكريا وامرأة إبراهيم -عليهم جميعا السلام- إنما هو في علم البشر، بينما قضت مشيئة الله تعالى لكليهما بالذرية، وإذا غابت مشيئة الله تعالى عن مدارك هؤلاء على فضلهم وفاجأهم قضاؤه فكيف يدعي اليوم من هو دونهم العلم بالغيب، ويتوهَّم أن الله حكم بالعقم على شخص فنجح طبيب في علاجه معارضًا المشيئة العلية!، وهل يُعارض قدر الله تعالى أحد!.

وفي قوله تعالى: "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاّ فِي كِتَابٍ مّبِينٍ" [الأنعام:٥٩]؛ قصرت الآية الكريمة العلم التفصيلي المسبق بكل مقدر الحدوث قبل وقوعه على الله -تعالى- وحده، وجعلته غيبا عن علم البشر.

وذكر القرآن خمسا تتعلق بحياة الإنسان ومصيره؛ يقول تعالى: "إِنّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللهَ عَلَيمٌ خَبِيرٌ"[لقمان:٣٤]، أطلق التعبير (وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ) على الله فشمل كل مغيب عن مشروع الإنسان المقبل ومستقبله ومصيره بعد الحساب مما ليس بمقدور بشر إدراكه فضلا عن الإحاطة بتفاصيله.

ولا يعارض القرآن إذن معرفة الطب حاليًّا ببعض أحوال الجنين، لأن المحجوب هو العلم المحيط به قبل أن يخلَّق.

وقد سئل فضيلة الشيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين –رحمه الله–: كيف نوفق بين علم الأطباء الآن بذكورة الجنين وأنوثته، وقوله تعالى:)وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ)؟ فأجاب بقوله: "قبل أن أتكلم عن هذه المسألة أحب أن أبين أنه لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبداً، وأنه إذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة له، وإما أن يكون القرآن الكريم غير صريح في معارضته؛ لأن صريح القرآن الكريم وحقيقة الواقع كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين أبداً، فإذا تبين ذلك فقد قيل: إنهم الآن توصلوا بواسطة الآلات الدقيقة للكشف عما في الأرحام، والعلم بكونه أنثى أو ذكراً، فإن كان ما قيل باطلاً فلا كلام، وإن كان صدقاً فإنه لا يعارض الآية، حيث إن الآية تدل على أمر غيبي هو متعلق علم الله تعالى في هذه الأمور الخمسة، والأمور الغيبية في حال الجنين هي: مقدار مدته في بطن أمه وحياته وعمله ورزقه، وشقاوته أو سعادته، وكونه ذكراً أم أنثى قبل أن يخلَّق،

أما بعد أن يخلق فليس العلم بذكورته أو أنوثته من علم الغيب؛ لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات الثلاث التي لو أزيلت لتبين أمره.

ولا يبعد أن يكون فيما خلق الله تعالى من الأشعة أشعة قوية تخترق هذه الظلمات حتى يتبين الجنين ذكراً أم أنثى.. قال ابن كثير رحمه الله..: (وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء من خلقه)..، وإذا كانت الآية لا تتناول ما بعد التخليق، وإنما يراد بها ما قبله فليس فيها ما يعارض ما قيل من العلم بذكورة الجنين وأنوثته..، ولا يمكن أن يناقض صريح القرآن الكريم أمراً معلوماً بالعيان" [مجموع فتاوى ورسائل الشيخ مُحَمَّد صالح بن العثيمين].

وعندما يُصَب المني في المجاري التناسلية للمرأة ينقبض الرحم ويغور للداخل بسبب مادة منوية تسمى بروستاجلاندين (Prostaglandin) ويعينها تقلص لا إرادي يقع للمرأة يصاحب نشوة الجماع (Orgasm)، وبهذا يعمل الرحم عمل المضخ (pumpaction) بطريقة تماثل عمل شفاطة لبن الثدي المطاطية التي تنقبض لتدفع الهواء، ومع الانبساط يقل الضغط داخلها فتشفط اللبن، وبالمثل ينبسط الرحم لاحقا فيعين الحيوانات المنوية على بلوغ البويضة قرب نهاية قناة الرحم، ولذا لا يقل دوره هذا أهمية عن دوره في حفظ الحمل على طول مراحله، حيث يزداد حجما بما يتناسب ومتطلبات الجنين، وتحمل البويضة نصف عدد الفتائل الوراثية (الكروموزومات)، ويحمل الحوين

النصف الآخر، وتتسابق الحيوانات المنوية وتعلو في المجاري التناسلية للمرأة ليحقق الفوز في بلوغ البويضة وإخصابها إما حيوان يحمل شارة الذكورة (كروموزوم بهيئة Y) فيكون الجنين المرتقب ذكراً -بإذن الله- وإما حيوان يحمل شارة الأنوثة (كروموزوم بهيئة X) فيكون الجنين أنثى بإذن الله، والبويضة الملقحة (Zygot) أشبه ما تكون بقطيرة أو "نطفة" لكنها تعرض لمن يمكنه القراءة كتابا بمشروع الجنين، وقبل تلقيح البويضة وتشكل الخريطة الوراثية وتخلّق الجنين لا يمكن الحديث طبيًّا عن جنسه أو صفاته الجسدية، وبتلقيحها تتضاعف الفتائل الوراثية، وبالانقسام تتزايد الخلايا وبنمو الجنين يزداد الرحم، ولذا يعتبر الحمل كله وجوها من الازدياد.

وفي قوله تعالى: "اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلّ أُنثَىَ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ" [الرعد:٨-٩]، أكدت الآية الكريمة قصر العلم التفصيلي المسبق بكل مقدر الحدوث قبل وقوعه على الله تعالى وحده، لكنها جمعت لله تعالى وحده ما هو بالنسبة للبشر غيب لم يقع بعد، فضلا عما هو شهادة متحقق الحدوث، وراعت ترتيب علم الله تعالى بالغيب بالنسبة للبشر ليناظر غيض الأرحام وترتيب العلم بالشهادة ليناظر زيادتها، ويعرف هذا الأسلوب عند اللغويين باسم "اللف والنشر" ويعني أن الأرحام تغيض قبيل تخلّق الجنين وازديادها، وبالفعل ينقبض الرحم ويغور للداخل قبل وقوع الإخصاب، وتشكل الخريطة الوراثية، ولا يمكن لأحد حينئذ سوى الله تعالى وحده العلم بخصائص الجنين أو ذكورته وأنوثته.

وفعل (تَغِيضُ) منسوب ابتداء في الآية الكريمة إلى (الأرْحَام)، وفي مقابل الازدياد خاصة يفيد كما في اللغة الغور والنقصان، وكذلك في القرآن؛ يقول تعالى: "وَقِيلَ يَأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ" [هود:٤٤]، ويقول تعالى: "أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً" [الكهف:٤١]، ويقول تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مّعِينٍ" [الملك:٣٠]، وفي لسان العرب: "غاض الماء يغيض غيضا.. نقص أو غار" [لسان العرب (٢٠١/٧)].

والخلاصة أن الله تعالى يعلم بمستقبل ومصير الإنسان المقبل الذي لم يتخلق بعد حال غيض الأرحام تماما كما هو حال زيادتها بعد تخلقه.

ويأتي الحديث مؤيدا نسق القرآن الكريم في قصر الغيب المطلق عن علم البشر على حال غيض الأرحام قبل تخلق الجنين دون حال ازديادها بعد تخلقه؛ ففي الحديث الذي رواه البخاري وغير واحد: "عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -ﷺ- قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)" [صحيح البخاري (٢٦٨٧/٦)، (١٧٣٣/٤)، تفسير ابن كثير (٥٠٣/٢)، تفسير الثوري (٢٣٩/١)، الدر المنثور (٢٧٧/٣)، صحيح ابن حبان (٢٧٣/١)، السنن الكبرى (٣٧٠/٦)، عمدة القاري (٣١٣/١٨)، (٨٦/٢٥)، التمهيد لابن عبد البر (٣٧٩/٢٤)].

قال ابن كثير: "هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد.. فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب.. وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر علمته الملائكة، ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت.. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب"[تفسير ابن كثير (٤٥٤/٣)].

وقد ورد في الحديث أن الملائكة تعلم بحال الجنين منذ بدء تكون النطفة، ففي الحديث الذي رواه البخاري وغير واحد: عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكا يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة. فإذا أراد أن يقضي خلقه، قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه". [صحيح البخاري (١٢١/١)، (١٢١٣/٣)، (٢٤٣٣/٦)، وصحيح مسلم (٢٠٣٨/٤)، مسند أحمد (١١٦/٣)، (١٤٨/٣)].

يقول فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني: "وإذًا هناك نصوص قد بينت بجلاء أن الأمر المحجوب عن علم غير الله إنما هو في مرحلة ما قبل تكون الجنين، فعلمنا أن الأرحام قبل أن تزداد حتى يراها كل المحيطين بالحامل تعاني من حالة تقلص وانكماش وغور ونقصان، وفي تلك الفترة حال الجنين المرتقب محجوب عن علم غير الله تعالى..، (فهو) مفتاح من مفاتيح الغيب يفتح على أبواب مغلقة، ولا يملكه دون الخالق سبحانه أحد.. وأما حمل الغيض على دم الحيض (أو

السقط) فلا يتفق مع كونه مفتاحا للغيب لأنه لن ينشأ منه جنين، وبإجماع علماء المسلمين مفتاح الغيب متعلق بالإنسان الذي سيخلق وقد تقرر في علم الله تعالى أن له مستقبلا مغيبا وليس دم الحيض (أو السقط) كذلك.

وفي مرحلة الغيض يستحيل على إنسان أن يعرف صفات الجنين المقبل.. ولو جئت بصفين؛ وقلت: أنا سأصنع من هذه الأحجار بناء هل سيعلم أحد السامعين يقينا أيكون من الصفين مدرسة أم مستشفى؟ فيلا أم عمارة ؟ هكذا الجنين في مرحلة الغيض لا يعلم أحد -غير الله تعالى- بما سيكون عليه حاله" [من مقالات الشيخ عبد المجيد الزنداني].

ولو افترضنا جدلا إذن إمكان قراءة الخريطة الوراثية عند تخلق الجنين ومعرفة صفاته وجنسه فلن ينقض هذا نصوص الوحي.

السؤال (٩٦٢٣٥): ما هو الفرق بين عرض آيات الله في الكون ودلائل خضوع الكون لله تعالى.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

مستعينا بالله تعالى أجيب على السؤال (ما هو الفرق بين عرض آيات الله في الكون ودلائل خضوع الكون لله تعالى؟)، وكأنه يتعلق بمدى مطابقة الآيات المتعلقة بوصف الكون في القرآن الكريم لما كشفته العلوم حديثا من أسرار الكون:

الإيمان بوجود الله تعالى فطرة في النفس الإنسانية، وإذا نظر الإنسان إلى الكون حصل له علم ضروري بأن هذه النظم الحكيمة والكائنات المهيأة بعناية لم توجد صدفة بل لابد لها من موجد أوجدها، ويرينا التاريخ كيف أن جميع الشعوب سعت فطريا نحو العبادة وإن ضلت السبيل وأنه لا بد من قدرة واعية تحاسب الناس بالعدل فتكافئ المحسن وتعاقب المسيء، وكانت بعثة الأنبياء ضرورة لهداية الناس نحو الطريق الصواب، وبعث كل نبي لقومه خاصة مؤيدا بمعجزة شاهدة حتى اختتمت سلسلة النبوات ببعثة النبي مُحَمَّد بلسان قومه برسالة عالمية مؤيدا بالمعجزة الخالدة وهي القرآن الكريم، وقد حوي القرآن من دلائل النبوة ما كفى لتوحيد أمم مشتتة وبناء حضارة عالمية عادلة امتدت لأطراف المعمورة لقرون، وفي عصر العلم بقي القرآن وحده بصفته معجزة لكل

الأمم نابضا بالحياة يفيض بحجج علمية في مختلف الميادين، وتوارت دونه كل الكتب التي تعكر فيها صفو العقيدة وبقيت منسوبة للوحي فلم تثبت للنقد العلمي على يد أتباع نزيهين.

ولم يملك المقلدون دفاعا إلا بالتشكيك وإثارة الشبهات والإدعاءات المفتقدة للدليل على النبي ﷺ والقرآن والإسلام، فتغافل الأب تيري على سبيل المثال وادعى أن: "النبي مُحَمَّد ﷺ قد حرم صراحة أي استعمال للعقل لإثبات وجود الله تعالى" وأن: "استعمال العقل ليس من الواجبات الأساسية في القرآن" محاضرات في الفلسفة الإسلامية والثقافة الفرنسية، بينما يدعو القرآن صراحة للاستدلال العقلي في مواضع كثيرة بالنظر في الكون لاستطلاع دلائل قدرة الخالق سبحانه وتعالى وعظمته؛ يقول تعالى: "قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنّذُرُ عَن قَوْمٍ لاّ يُؤْمِنُونَ" يونس١٠١، ويقول تعالى: "أَفَلَمْ يَنظُرُوَاْ إِلَى السّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَىَ لِكُلّ عَبْدٍ مّنِيبٍ" ق٦-٨، ويقول تعالى: "أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ. مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" الأعراف١٨٥و١٨٦، ويثني القرآن الكريم صراحة على أولئك الذين يعقلون ويجعل من عداهم في عداد البهائم لأنهم لا يفكرون؛ يقول تعالى: "وَمَثَلُ الّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ" البقرة ١٧١، ويقول تعالى: "إِنّ شَرّ الدّوَابّ

عِندَ اللهِ الصّمّ الْبُكْمُ الّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" الأنفال ٢٢، وقال تعالى: "أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ سَبِيلاً" الفرقان ٤٤، وبعد استعراض مظاهر كونية عديدة تعلن عن ضرورة المشيئة الواعية وسبق التقدير في الخلق يقصر تعبير القرآن الكريم الانتفاع بها على الذين يعقلون؛ يقول تعالى: "إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَالْفُلْكِ الّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السّمَآءِ مِن مّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثّ فِيهَا مِن كُلّ دَآبّةٍ وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ وَالسّحَابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" البقرة ١٦٤، ويقول تعالى: "وَسَخّرَ لَكُمُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنّجُومُ مُسَخّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" النحل١٢، ويقول تعالى: "وَاخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السّمَآءِ مّن رّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ آيَاتٌ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الجاثية٥، واعتبرت الموجودات بذاتها في القرآن الكريم دلائل فسميت آيات؛ يقول تعالى: "وَكَأَيّن مّن آيَةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف١٠٥، واعتبرت الإشارة إليها في كتاب الله تعالى أيضا آيات؛ يقول تعالى: "تَلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ" الجاثية٦، وبهذا ينكشف جليا أن من المستشرقين من لا تحكمهم نزاهة الباحث عن الحقيقة وإنما البعض مغرضون متحيزون وبحكم مسبق يفتشون عن ذريعة.

وترد المطابقة مع الواقع بتلطف لا يلفت عن غرض، فتخبرك الكشوف مثلا أن الأرض ليست إلا كوكبا يدور حول نفسه وحول الشمس كبقية توابع

الشمس، وما نراه يمر من آيات السماوات كالشمس والقمر والنجوم حول الأرض الساكنة ليس إلا الظاهر والحقيقة أن سكان الأرض هم الذين (يمرون) على آيات السماوات كما يمرون على معالم الأرض، والقرآن ينسب المرور على معالم السماوات إليهم بالعبارة (وَكَأَيّن مّن آيَةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرّونَ عَلَيْهَا..)، وبهذا كانت المخلوقات في القرآن آيات على عظمة الخالق وذكرها آيات على قدرته وكشف خفاياها بتلطف آيات على علمه وحكمته، وليس من قبيل الصدفة أن يفيض القرآن دون ما ينسب سواه للوحي بما يوافق الحقيقة قبل أن يكتشفها الباحثون بقرون، لأنه وعد صريح نراه يتحقق اليوم قد تردد في مواضع عديدة أكثرها جلاء نص لا يمكن صرفه عن ظاهره وهو قوله تعالى: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتّىَ يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" فصلت ٥٣.

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٤
يخرج من بين الصلب والترائب	٦
من الإعجاز العلمي: البعوضة وما فوقها	١١
الاشتغال بالإعجاز العلمي في النصوص الشرعية	٢٦
يخرج من بين الصلب والترائب	٢٩
ربط النصوص الدينية بالضواهر الطبيعية	٣٣
طلوع الشمس من مغربها	٣٦
ما الذي يحدد نوعية الجنين؟	٣٩
تفسير القرآن بالربط بين الأرقام والمعاني	٤٢
كيف خلق الله الكون؟	٤٧
علماء الإغريق واكتشاف مراحل الجنين؟	٥٢
تساؤلات حول كتاب الطب الوقائي من القرآن والسنة.....	٥٧
العقل في القلب أو الدماغ	٥٩
الإعجاز العلمي للقرآن	٧٤
البرنامج الغذائي للرسول ﷺ	٧٧
من القرآن ما يفسره الزمان	٧٨
ما الحكمة من خلق الكون؟	٨٥
الحكمة في جعل السماوات والأراضين سبعاً	٨٨

وجود كائنات في الكون غير الإنسان ٩٨
شبهة حول قوله تعالى:"وأنزل لكم من الأنعام..." ١٠٢
التشكيك في وجود الإعجاز العلمي في القرآن ١٠٩
هل أيام خلق السماوات والأرض مثل أيام الدنيا؟ ١١١
هل خلقت الأرض جملة واحدة أم مرت بمراحل؟ ١١٦
الكون بين الاتساع والانكماش ١٣٧
هل ما نراه هو السماء الدنيا فحسب؟! ١٤٧
هل الإعجاز العلمي من العلم؟ ١٥١
تطور الجنين كما حكاه القرآن ١٦٠
دحض الدعوى بأن الإعجاز العلمي من إخبار الشياطين ١٧٤
تفسير قوله تعالى:"يخرج من بين الصلب والترائب" ١٨٦
هل مكة معصومة من الزلازل؟! ١٨٨
الإعجاز العلمي في قوله:"إذا بلغ مغرب الشمس..." ١٩٦
اكتشافات العصر واختصاص الله بعلم ما في الأرحام! ٢٠٩
الفهرس ٢٢٣